مقالات شبلي

في

الإسلام والمستشرقين

صاحب كتاب (الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي)

د. هيفاء شاكري

الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلامة شبلي النعماني الهندي
صاحب كتاب (الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي)

مقالات شبلي

في الإسلام والمستشرقين

ترجمة وترتيب
د. هيفاء شاكري

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كلمة المترجمة

العلامة شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤م) من علماء الهند القلائل الذين يفقد نظيرهم لا في الهند بل في العالم الإسلامي كله. ولد العلامة شبلي في بِنْدَوَلْ (Bindawal) إحدى قرى محافظة أعظم كره (أوترابراديش)، وفرغ من نيل العلوم والآداب على أمهر شيوخ زمانه، ثم ارتبط بالسير سيد أحمد خان كأستاذ للعربية والفارسية في كلية M.A.O التي كان السير سيد مؤسّسها والتي تعرف الآن بجامعة علي كره الإسلامية. تلألأ نجم العلامة شبلي في رحاب هذه الكلية وذاع صيته في كافة أنحاء العالم كمحقّق وأديب إسلامي وناقد كبير.

ألّف العلامة شبلي عديدًا من الكتب كما صنف كتيبات ومقالات علمية يندر نظيرها في العلم والأدب والفن، حتى قال السير سيد أحمد عن بعض ما رآها فقدّم لها: لو قال الشيخ شبلي مخاطبًا للمسلمين "فأتوا بسورة من مثله" لما أتى نكرًا". تزهو مؤلفاته على العشرين كما أن مقالاته تفوق الحصر وهي الآن منشورة في مجموعة مقالاته في ثمانية مجلدات.

من أبرز مؤلفات العلامة شبلي "سيرة النبي" و"الفاروق" و"المأمون" و"سيرة النعمان" و"الغزالي" و"الرومي" و"شعر العجم" و""الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي". معظم هذه المؤلفات باللغة الأردية إلا أن بعضًا منها تمت ترجمته إلى العربية. ولكن رسائله ومقالاته لا تقلّ عن أي كتاب علمًا وأدبًا وفنًا ففي هذه المقالات نجد معلومات نادرة وبأسلوب علمي حديث مما لا نجدها في أي كتاب آخر أو مقالة فكتيباته "الجزية" و"تراجم" و"التعليم الماضي للمسلمين" كتيبات علمية نادرة كما أن مقالاته أمثال "مكتبة الإسكندرية" و"المكتبات الإسلامية" و"البيمارستانات في العهد الإسلامي" و"مساهمة المسلمين في علم الميكانيكا" مقالات وبحوث قيّمة تمت ترجمة البعض منها إلى اللغة الإنجليزية.

ترجم بعض هذه الكتب- كما أسلفنا- إلى اللغات الدولية ومنها العربية وكذلك ترجمت مقالاته إلى الإنجليزية والفارسية ولكن الحاجة كانت ماسّة إلى ترجمة أجود مقالاته وبحوثه العلمية إلى اللغة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العربية التي تتعلق بها هذه المقالات مباشرة، وقد أشار إليها العديد من الباحثين والكتّاب العالميّين حتى أن بعض العرب حاول تلخيص بعض هذه المقالات والبحوث إلا أنهم أخطأوا لعدم معرفتهم للغة الأردية التي كتبت فيها.

ونظرًا لهذا وذاك عزمت على أن أقوم بترجمة بعض هذه البحوث والمقالات العلمية إلى اللغة العربية لكي يستفيد منها العرب الذين لا يجيدون اللغة المصدر، ولو شجّعني القرّاء فسأقوم بترجمة مقالاته الأخرى التي لها علاقة مباشرة باللغة العربية ودراساتها.

اخترت خلال الترجمة مقالات العلامة شبلي النعماني المنشورة في المجلد السادس لمجموعة مقالاته والتي تتحدث عما أورده المستشرقون من اعتراضات وشكوك في خدمات الإسلام وأتباعه للعلم والفن كما تنطق عن خدمات المسلمين للتراث العلمي الأجنبي ودورهم في تطويره وتبليغه ذروة الكمال حتى لو رآه أصحابه لما عرفوه في صورته المتطورة.

هذه المجموعة المترجمة تحتوي على خمس مقالات بما فيها مقالته الرائعة عن حريق مكتبة الإسكندرية والتي تبرز لأول مرة للعالم العربي في شكلها التام، زدنا إليها مقالة بعنوان "رأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية" ولو أن الرأي ليس لعالم مستشرق بل ضممناها إلى هذه المجموعة لتشبهها بهذه المقالات مادة وهدفًا، والحق أنه يوجد بين الباحثين المسلمين من يفضّل أن يتبع هؤلاء المستشرقين وعلى هذا فهم أولى بأن يسمّوا "مستشرقين" من أن ندعوهم "مسلمين".

وأخيرًا ولا آخرًا ندعو الله سبحانه وتعالى أن يزيدنا علمًا وتقوى، ويوفّقنا للمزيد من خدمة العلم والأدب والفن، وهو الموفق وعليه التكلان.

د. هيفاء شاكري

دلهي الجديدة

فبراير، ٢٠١٥م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حريق مكتبة الإسكندرية

من ضمن الأخطاء التي يؤسف عليها ووجدت في أوربا وما زالت بالنسبة للتاريخ الإسلامي هي هذه الحادثة.

بالرغم من أن أوربا تمتلك ومنذ زمن بعيد الوسائل التي تستطيع بواسطتها الحصول على معلومات عن أحوال المسلمين. إن بداية علم التاريخ الحديث هو عصر الحروب الصليبية. في هذا العصر تعرّفت أوربا على المسلمين بكونهم محاربين ومدمّرين ووحوشًا وفوق كل ذلك أعداء للصليب المقدّس وقبلة المسيحيين والقدس، وهذا العصر هو أيضًا عصر خروج أوربا من ظلماتها حيث صرّح أغلب المؤرخين بأن بداية التطور العلمي لأوربا كانت في هذا العصر، انتشرت فيه أقوال غريبة عن المسلمين وكان ذلك حسب الأحداث في تلك الفترة. وما تولّد في تلك الفترة من سوء الفهم عن ديانة المسلمين وشعبهم ومجتمعهم وتطورهم في أوربا، اشتهر إلى درجة أنه صار يضرب به المثل من قبل العامة والخاصة، وعندما بدأت فترة التأليف في أوربا تم استخدام تلك التعبيرات في كتابة التواريخ والحكايات والروايات بل وكتب الفلسفة أيضًا بكثرة، كتب بيكن وهو مؤسس الفلسفة الحالية مقالات وتسمّى هذه المقالات "مقالات بيكن"، يكتب فيها في مثال الشجاعة والإقدام:

"كان محمد في يوم من الأيام يدعو الناس فقال للحضور: اذهبوا إلى ذلك الجبل وقولوا له بأنّ محمدًا يطلبك، ذهب الناس ولكن الجبل لم يتحرك من مكانه طبعًا، وعندما رأى ذلك قال بكل طمأنينة وجرأة دون خجل: لا حرج إن كان الجبل لا يأتي إلى محمد فمحمد يذهب إلى الجبل".

لم يكن بيكن مؤرخًا ولم يذكر هذه الحادثة للتحقير من شأن محمد ﷺ حسب تفكيره، بل ذكرها في بيان جرأته وثقته، لكن بسبب توغل مثل هذه الأقوال في المجتمع آنذاك كان العامة والخاصة يذكرون هذه الأقوال كأسس يبنى عليها، وكانوا يعتبرونها صحيحة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

توجهت أوربا إلى البحث والتحقيق منذ ما يقارب مئة سنة، وتظهر حقائق هذه الأقوال يومًا بعد يوم، حتى اعترف كبار المؤرخين الأوربيين أن هذه الأقوال هي محل ندامة لأوربا، يكتب السيد كار لائل في كتابه "Lecture in the Heroes" (محاضرات في الأبطال) إن الأكاذيب التي نسبها المفكرون والناشطون للدين إلى هذا الشخص (محمد) كل تلك التهم أصبحت سببًا لسواد وجوهنا، ولأن كار لائل كتب هذه المحاضرة خاصة للرسول لذلك خصّه بالذكر مع أن هذه الأكاذيب كانت منتشرة عن الإسلام وتاريخه في أوربا، وبالرغم أن التحقيقات الجديدة قد قلّلت من هذه الأخطاء إلا أنها لم تمحها تمامًا، لأن تحقيق الأحداث التي انتشرت بهذه الكثرة في الشعب لا يميل إليها إلا الذين لا يخضعون لضغط الجماعة وقليل ما هم.

وهناك سبب خاص آخر وهو أن محيط المحققين منفصل عن عامة الناس، ومع أن الحوادث التي أثبتها المحققون بعد البحث والتحقيق هي التي تكون موثوقة إلا أنها لا تنشر بين عامة الناس ومؤلفاتهم وقد اعترف المحققون المشهورون في أوربا بالخطأ في هذه الأقوال التي تولّدت عن الحوادث الإسلامية، فنجد غبن، وكار لائل، وغوت فري هيغنز، وباسورث، ورينان، وسيديو وغيرهم ينكرونها تمامًا، ولكن لم تضعف قوتها في المؤلفات والأقوال العامة حتى الآن.

ومن هذه الحوادث حادثة حريق مكتبة الإسكندرية.

ومن العجيب ذلك الأسلوب الذي اتخذته أوربا للتشهير بهذه الحادثة فلا تخلو التواريخ، والروايات، والحكايات، والأمثال، والإشارات ذات الخلفية القصصية، والأحاديث اليومية من أثر للحادثة، وأما بالنسبة للأدب فحدّث ولا حرج، ولم تحرم الفلسفة والمنطق من أثرها ففي سنة[1] من السنوات وجد سؤال في امتحانات جامعة كولكاتا في مادة علم المنطق يطلب إزالة سوء الفهم من العبارة التالية "إن

[1] أي في سنة ١٨٨٢م

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدّم بإعدامها".

الأمر الذي يلفت الانتباه هو السؤال عن السبب التعاطف الكبير مع مكتبة الإسكندرية من قبل الغرب. الشيء المعروف أن المكتبة التي نناقشها لا يرتبط بها المسيحيون، فقد أسّسها ملوك مصر الذين كانوا عبدة الأوثان، وكان ذلك قبل زمن سيدنا عيسى عليه السلام بفترة طويلة. وقد يقال أن هذا التعاطف بسبب تقدير أوربا العام للعلوم ولكن لماذا بالأخص الإسكندرية؟ قد دمّرت مكتبات كبيرة متعددة في هذه البلدان ولكننا لا نجد أي ضجيج على ذلك في أوربا. من شهّر بالمكتبات الإيرانية التي دمّرها الإسكندر؟ وفي أسبانيا أزال المسيحيون كل المعالم العلمية للمسلمين ودمّروا آلاف الكتب، من الذي ندبها أو حزن عليها؟ فلماذا هذا التعاطف الخاص مع مكتبة الإسكندرية؟

الحقيقة (والتي سنثبتها لاحقًا) أن المسيحيين هم الذين دمّروا هذه المكتبة واشترك في ذلك كبار أعلام الدين، وكان هذا الشيء يبعث على الفخر في ذلك العصر. ولكن حينما آنت الحضارة لهم أدركت أوربا أن هذه الحادثة وصمة عار على جبينها، ولم تكن هناك طريقة لمحوها إلا إلقاء اللوم على شعب آخر. عندما فتح المسلمون مصر والإسكندرية لم تكن المكتبة في حيز الوجود، ولكن المسيحيين المتعصبين نسبوا غيابها إلى الفاتحين، ولأن أوربا في تلك الفترة كانت مليئة بالتعصب ضد المسلمين ولم يكن فيها أي تطور علمي لذلك لم يفكّر أحد في البحث والتحقيق، وانتشرت هذه الأقاويل في أوربا كلها بسرعة كبيرة، وبكت أوربا على هذه الحادثة وكأن المكتبة كانت مكتبتهم، والعامة إلى يومنا هذا تؤمن بذلك. والفائدة الكبيرة من هذه الشهرة العامة أن أحدًا لم يفكّر في إلحاق هذه التهمة إلى المسيحيين، فشيء طبيعي أن أي شعب لا يدمّر كنوزه بنفسه.

والآن نحقّق هذه الحادثة التي كانت أوربا مليئة بدويّها في ذلك العصر، ما هو الأصل والحقيقة؟ للأسف لا شيء. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لحادثة مفترضة أن تكون مشهورة ويسلّم بها لهذه الفترة الطويلة في كل دول أوربا؟ والسؤال صعب في ظاهره لكن جوابه سهل جدًا، ولا نتعجب على

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذه الشهرة في عصر الظلام الذي شهدته أوربا، وكانت تنتشر في ذلك العصر آلاف المآت من الأكاذيب المماثلة وكان الناس يتقبلونها، مثلما ذكرنا في بداية المقال، وبدأ النقاش عليها في عصر التطور والنمو وأنكرها كبار المؤلفين، ولكن العجيب أن بعض الناس يعتبرونها صحيحة إلى الآن مع أن إنكارها بشكل قطعي أمر واجب.

ولكن هذا يرجع لسببين: الأول أنه حتى في زمن التقدم والرقي لا تفنى آثار الجاهلية تمامًا وهذا لا يمكن، والسبب الثاني وهو الأهم أن الطريقة التي تتبعها أوربا في تحقيق الحوادث التاريخية لا تخرج بنتيجة قطعية في كثير من الأحيان، فيتركون الرواية أو الحادثة الأصلية ويبحثون في الدراية والقياس، وتصبح كثير من الأشياء الفرعية قابلة للبحث والنقاش، وتنتج عن ذلك سلسلة طويلة ويبقى الموضوع الأساسي دون تفصيل. وهذا ما حدث في هذه القضية ونفصّل ذلك في الصفحات القادمة.

تناقش هذه القضية في أوربا منذ فترة وقد كتب عنها أغلب الكتّاب مقالات مستقلة ونجد ذكرها بكثرة فيما كتب من الواريخ العامة عن المسلمين ويذكر الكتّاب بعد بقل الرواية رأيهم الخاص (موافق أو مخالف)، وما مرّ علينا من كتبات في هذا الشأن إجمالًا من المناسب ذكرها لأننا سنشير إليها في أكثر من موضع في مقالنا، لذلك نكتب أسماء الكتب مع الصفحات والطبعات.

أول من أنكر هذه الحادثة هو السيد غبن (ت١٩٧٤م) في كتابه "تاريخ الإمبراطورية الرومية" جزء فتح المسلمين للإسكندرية حيث كتب ملاحظات مختصرة لكنها محقّقة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أثبت ذلك البروفيسور وايت في مقال مستقل، انظر:

Aegyrkctiuca or Observation on Certain Antiquities of Egypt by: J. White D. D. Professor of Arabic in the University of Oxford, 1801

Successors of Muhammad by: Washington Irving pg. 113 printed by Bell & Sons, London

The Saracens by: Arther Glimmen, Second Edition, pg. 254 Story of Nation Series, Edited, 1889

History of Arabia Antient and Modern, Vol.: 1 pg. 393 by: Andrew Cricton

History of the Conflict between Religion and Science (تاريخ النزاع بين الدين والعلوم), 20th Edition, London, 1887. Pg. 104 & 103 by: Drapell D. Professor, New York College, America

ونشرت في صحيفة الإسبيكتيتر وهي صحيفة مشهورة في لندن نقاشات عديدة كان بعضها موافقًا والبعض الآخر مخالفًا، انظر إسبيكتيتر، عدد: ٢ يونيو ١٨٨٨م و٢٣ يونيو ١٨٨٨م

دائرة المعارف البريطانية، ذكر الإسكندرية

السيد سيديو وهو عالم فرنسي مشهور وألّف تاريخًا مفيدًا وشاملًا للإسلام قد نقد الحادثة تنقيدًا تاريخيًا، انظر:

Histaire Generale Des Are bes Parl. A. Sedillol Yom, Paris, 1877, pg. 155

وكتب البروفيسور ديساسي عالم العربية الفرنسي المشهور بحثًا مفصلًا عن الحادثة، انظر ترجمة ملاحظات البروفيسور دساسي (Dessasy) في كتاب عبد اللطيف البغدادي طبعة باريس ١٨١٠م صفحة ٢٤٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والمقالة الشاملة والمفصّلة أكثر من جميع المقالات هي التي قدّمها السيد كريل الألماني في مؤتمر العلوم الشرقية. أنشيء في أوربا مؤتمر منذ ١٥ سنة والذي هدف إلى إجراء تحقيقات نادرة ومفيدة عن تاريخ آسيا، وقد عقدت الجلسة الرابعة لهذا المؤتمر في سبتمبر ١٨٧٨م في فلورنسا في جلسة من جلسات المؤتمر قدّم السيد كريل وهو عالم مشهور بالعربية من ألمانيا مقالة عن هذا الموضوع باللغة الألمانية والذي طبعت مع تقرير المؤتمر، وقد ذكرت ترجمتها في نهاية هذه المقالة.

وأريد أن أوضح أيضًا أن ترجمة مقالة السيد كريل قد قام بها ليس أعزّ أصدقائي بل سيدي شمس العلماء العلامة سيد علي البلغرامي عالم الجيولوجيا (B.A. & B.L.) المفتش العام للمعدنيات في حيدراباد الدكن، والذي يعتبر فارابي وكندي زماننا من حيث علمه باللغات واضطر إلى القول عن الكتب الفرنسية أنني تعلّمت بعضًا من الفرنسية المكسورة ولذلك لا أجد صعوبة في الاستفادة منها.

بحث مقدّم وضروري: والبحث الضروري والمقدّم في هذه الرواية هو معرفة إن كان المصدر الأصلي لها التواريخ الأوربية أم التواريخ العربية، هذا سؤال ضروري ولكنه لا يطلب النقاش، لأن المعارضين والمؤيدين ردّوا عليه ردًا واحدًا. مؤرخو أوربا سواء كانوا موافقين أو معارضين لا ينكرون بأنه ليس لديهم أي مصدر لهذه الرواية وهم في هذه المرحلة مقيّدون بالتواريخ العربية، ولكن قبل أن نثبت هذا القول نريد أن نبين كيف اشتهرت هذه القصة في أوربا وبواسطة من؟

الحياة المختصرة لأبي الفرج: أول من شهّر بهذه الحادثة في أوربا هو أبو الفرج، ونبذة عن حياته أنه كان ابنًا لطبيب يهودي يسمّى هارون، ولد في مدينة ملتن عام ١٢٢٦م، ولأن والده قد تحوّل من اليهودية إلى المسيحية تلقّى أبو الفرج تعاليم الديانة المسيحية منذ البداية. وإضافة إلى علوم دينه حذق في اللغة العربية والسريانية وبسبب تفوّقه عيّن قسيسًا في غويا وسنه لم تتجاوز ٢١، ثم ترقى تدريجيًا إلى رتبة مافريان والتي تبقى بعده مرتبة البطريق فقط. كتب أبو الفرج باللغة السريانية تاريخًا بسيطًا جدًا والذي كانت مصادره الكتب السريانية والعربية والفارسية واليونانية ثم اختصر هذا الكتاب باللغة العربية والذي يسمّى "مختصر االدول" والذي نشره الدكتور بوكاك البروفيسور في كلية أوكسوفورد

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عام ١٦٦٢م مع الترجمة اللاتينية. هناك نسخ مختلفة لهذه الخلاصة وكلها ناقصة وبعض الحوادث زائدة عن الأصل السرياني، ويشكّ إن كانت هذه الإضافات لأبي الفرج أم لغيره، وهذه هي الخلاصة التي ذكرت فيها حادثة إحراق مكتبة الإسكندرية لأول مرة، وانتشرت من الترجمة اللاتينية في أوربا كلها.

يكتب السيد غبن في تاريخه "نقلت هذه القصة مرارًا وتكرارًا منذ أن طبع تاريخ أبي الفرج بالترجمة اللاتينية" وقد ذكر بوضوح كل من واشنطن إرونغ، وآثر غولمن، والسيد كرشتن وكثير من المؤلفين الأوربيين أن هذه الرواية وصلت بواسطة أبي الفرج. وكان هذاالعصر في أوربا عصر العصبية والجهالة ولذلك كانت تقبل كل الروايات المتعلقة بالمسلمين صحيحة أو خاطئة والتي تولّد الكراهية ضد المسلمين، على كل حال فإن الحادثة أصبحت مشهورة في جميع أنحاء أوربا وأصبحت بسرعة كبيرة جزءًا من الأدب الأوربي. والكلمات التي استخدمها أبو الفرج هذه هي ترجمتها بالأردوية (ثم يذكر كاتب المقال الترجمة اللفظية باللغة الأردية ونحن ننقل هنا العبارة العربية)

"وفي هذا الزمان اشتهر بين الإسلاميين يحيى المعروف عندنا بغرماطيقوس أي النحوي. وكان إسكندريًا يعتقد اعتقاد النصاري اليعقوبية ويشيد عقيدة السامري. ثم رجع عما يعتقده النصارى في التثليث. فاجتمع إليه الأساقفة بمصر وسألوه الرجوع عما هو عليه. فلم يرجع فأسقطوه عن منزلته وعاش إلى فتح عمرو ابن العاص مدينة الإسكندرية ودخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة ما هاله ففتن به. وكان عمرو عاقلًا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه ثم قال له يحيى يومًا: إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها. فما لك به انتفاع فلا أعارضك فيه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به فقال له عمرو: وما الذي تحتاج إليه قال: كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية، فقال له عمرو ما لا يمكنني أن آمر فيها إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكتب إلى عمر وعرّف قول يحيى فورد عليه كتاب عمر يقول فيه: وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليه فتقدّم بإعدامها فشرع عمرو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بن العاص في تفريقها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها فاستيقدت في مدة ستة أشهر، فاسمع ما جرى وأعجب"[1].

أول من أنكر هذه الحادثة هو غبن: آمن الجميع بالحادثة ولم يفكر أحد بتحقيقها والتفتيش فيها، ولأول مرة نظر إليها المؤرخ غبن والذي يعتبر مؤسسًا لطريقة خاصة في التاريخ، نظر إليها نظرة التحقيق وكتب: "إنني أميل إلى إنكار أصل الحادثة ونتائجها كذلك" وقد بيّن غبن أسبابًا مختلفة لإنكاره ورفضه وإحداها أن أبا الفرج ولد بعد الحادثة التي نناقشها بخمسمائة سنة، ولم يذكر أحد وحتى المؤرخين المسيحيين هذه الحادثة فكيف تعتبر شهادة أبي الفرج صحيحة، وبعد إنكار غبن أفاقت أوربا من سباتها وبدأ العديد من العلماء يحققون الحادثة ولو أنه نتج عن تحقيق غبن فريقان: مؤيد ومعارض، إلا أن المعروف أنه لم يؤلف أي كتاب عن الإسلام في أوربا في القرن الأول الهجري، وهذا هو السبب أن المؤلفات التي ألّفت في السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين في أوربا أو التي هي قيد التأليف مأخوذة عمومًا من التأليفات الإسلامية، لذلك اضطر الفريق الذي يؤيد هذه الحادثة أن يرجع إلى التواريخ العربية.

الأوربيون يذكرون أن مصدر هذه الرواية هي التواريخ العربية: السيد كرشتن والذي أبدى غضبه على رفض غبن يكتب في كتابه تاريخ الإسلام "إذا كانت هذه الحادثة مبنية على بيان ذلك الشخص الغير المعروف (أبو الفرج) والذي كتبها بعد ستمائة سنة لكان من الممكن أن نتردد في الاعتراف ببيان مؤرخ آرمينية، لكنها لا تستند فقط على دليله ولكن خلاف ذلك قد ذكرها المقريزي وعبد اللطيف اللذين كتبا مصنفات عن تاريخ مصر القديم"، وقد اعترف بذلك علانية السيد كريل بكل عدل، يكتب: "على حسب ما أتذكر فإن هذه الحادثة ذكرت أولًا في تاريخ عبد اللطيف الذي ولد بعد هذه الحادثة بخمسمائة سنة"

---

[1] راجع: تاريخ مختصر الدول (طبعة لندن، ١٦٦٣م)، ص ١٨٠-١٨١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبعد أن تم تحديد أن مأخذ هذه الحادثة هي التواريخ العربية فقط، فمن السهل أن نفصل في هذا النقاش لأننا نستحق أن نعرف المؤلفات العربية أكثر من أوربا، وصاحب البيت أدرى بما فيه.

إن المؤرخين الأوربيين الذين أرادوا إثبات هذه الحادثة أسندوها إلى عبد اللطيف البغدادي، والمقريزي وحاجي خليفة، وقالوا: "إن هؤلاء المؤرخين ثقات ولا يمكن إنكار شهادتهم". وحسبما رأيت وقرأت فإن أوربا دائمًا ذكرت هذه الأسماء فقط، وهناك إنكليزي جاهل أشار إلى ابن خلدون ولم يخجل من الكذب، وكتب إن ابن خلدون ذكر هذه الرواية في أحوال عمر، لكن تاريخ ابن خلدون كتاب عام ومعروف وليس هناك في أحوال عمر حرف واحد عن الحادثة، فإذا أبعدنا ابن خلدون تثبت الرواية معتمدة على المؤلفين الثلاثة المذكورين. والآن نتوجه إلى تحقيق هذه الرواية بأصول تاريخية، وفي ذيل ذلك نبين كيف أن المؤرخين الأوربيين استخدموا أسلوب التدليس والخداع في استنادهم إلى المؤلفين الثلاثة.

هناك طريقتان لإثبات الوقائع التاريخية: الرواية والدراية. الرواية تعني أن الحادثة التي تذكر يتم إيصال سندها إلى الشخص الذي حضر الحادثة، وقد اعتدمت جميع التواريخ المستندة للعرب على هذه القاعدة وهذا هو السبب في استخدام كلمات (أخبرنا وحدّثنا) حتى تذكر سلسلة السند وتذكر أسماء جميع الرواة حتى يصل السند إلى الشحص الذي حضر الحادثة. وكان هذا نهج التواريخ الإسلامية حتى القرن الرابع، ولو أن هذا النهج أصبح أقل رواجًا فيما بعد ولكنه استخدم لبيان حوادث القرون الثلاثة الماضية يعني أن الأحداث المذكورة لذلك العصر بسلسلة السند هي التي تعتبر موثوقة.

والدراية تعني أن الحادثة التي تذكر يجب النظر إليها بكونها مناسبة لمقتضيات الطبيعة الإنسانية، ومميزات العصر، وأحوال الشخص الذي نسبت إليه وقرائن أخرى، وإذا كانت الحادثة لا توافقها تكون صحتها مشكوك فيها، بمعنى يكون هناك من التغيرات في الرواية ما أدّى إلى تغيير ظاهرها، ونريد أن نضع نصب أعيننا نفس هاتين الطريقتين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تحقيق الحادثة حسب قواعد الرواية: لأن الفريقين في هذه القضية أحدهما منكر لها والثاني مثبت ومؤيد لها ولأن استدلال التأييد في مثل هذه القضايا يكون على الفريق المؤيد والمدعي لها، نلتفت أولًا إلى الأدلة والشهادات التي تذكر لإثبات هذه الحادثة، وإلى الحد الذي نعرفه (ونجزم أن شخصًا آخر لا يمكنه أن يثبت في هذا النقاش أكثر من هذا) فإن كل المؤلفين الأوربيين الذين يريدون إثباتها تقتصر دلائلهم حسب أصول الرواية على "أن عبد اللطيف البغدادي، والمقريزي، وحاجي خليفة قد ذكروا هذه الحادثة"، إن الأمور التي تتطلب البحث والتحقيق هي هل ذكر هؤلاء شيئًا يتعلق بهذه الحادثة والذي يمكن أن يقدّم كشهادة؟ وهل تكفي شهادتهم فيما يتعلق بهذه الحادثة؟

المؤرخون الأوربيون والذين يدعون هذه الحادثة يذكرون اسم عبد اللطيف والمقريزي وحاجي خليفة بصورة مزورة مرارًا وتكرارًا، والذين أنكروها لا يتعبرون شهادات هؤلاء المؤلفين موثوقة، وطريقة البحث أو النقاش هذه أسدلت الستار على مكر المؤرخين الأوربيين، لأن النقاش قد اقتصر على إمكانية كون عبد اللطيف وغيره موثوقًا ومستندًا عليهم أم لا، مع أنه كان من اللازم أولًا التحقق من أن عبد للطيف قد قدّم شهادة أصلًا.

أول شيء تجب مناقشته هو هل المؤلفون الثلاثة، والذين تكررت أسماؤهم، شهاداتهم منفصلة؟ أمامنا تاريخ المقريزي الذي طبع في مصر وقد وضع المقريزي في الجزء الأول ص ١٥١ عنوانًا، وهو عمود السواري، وهي منارة مشهورة في الإسكندرية، ونقل حرفيًا العبارة التي كتبها عبد اللطيف في ذكر هذه المنارة. جاء ذكر الإسكندرية في كتابة عبد اللطيف بطريقة ضمنية، ولأن المقريزي قد نقل عبارته حرفيًا، فالعبارة التي تتعلق بالمكتبة نقلت أيضًا كما هي، وعلى هذا الأساس اضطر الموسيو لانغل وهو عالم فرنسي معروف بالاعتراف بأن بيان المقريزي ليس شهادة مستقلة، ولكنه فقط نقل لفقرة عبد اللطيف![1] إن موسيو لانغل يخالفنا في النقاش حول مكتبة الإسكندرية ولكنه مضطر لهذا الاستسلام، إن المؤرخين الأوربيين الذين لم يشاهدوا الكتاب الأصلي للمقريزي يكرّرون اسمه جهلًا، ولكن الموسيو لانغل لم يستطع أن يقبل ذلك لأنه قرأ كتاب

[1] راجع: تعليق البروفيسور ديساسي (ترجمة تاريخ عبد اللطيف البغدادي، طبعة باريس ١٨١٠م)، ص ٢٤٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المقريزي بنفسه وقد فصّل فيه المقريزي أحوال فتح الإسكندرية ولكنه لم يكتب حرفًا واحدًا عن المكتبة مما يظهر وبكل وضوح أنه لا يدرج تلك الحادثة في فهرس الحوادث التاريخية.

وبعد خروج المقريزي يبقى اسمان: عبد اللطيف والحاجي خليفة، مع أن أغلب المؤرخين قد ذكروا حاجي خليفة ولكنهم لم يشيروا إلى عبارته الخاصة لأنهم إن فعلوا ذلك لأصبح ادعاؤهم ضعيفًا، ونحن ممنونون للبروفيسور ديساسي (وهو مؤلف فرنسي معروف والذي يريد أن يثبت هذه الحادثة بكل قوة) الذي كشف هذا السر ونقل عبارة حاجي خليفة وهي:

"فكانت العرب في صدر الإسلام لا تعتني بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها وصناعة الطب فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم لحاجة الناس طرًا إليها وذلك منهم هونًا لقواعد الإسلام وعقائد أهله عن تطرق الخلل من علوم الأوائل قبل الرسوخ والأحكام حتى يروى أنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب في فتوحات البلاد".

وهذه العبارة لا تذكر الإسكندرية وإنما تذكر حرق الكتب بشكل عام، وذلك أيضًا بذكر كلمة (يروى) وهذا يظهر أنها رواية عامة ولا يظهر بهذه العبارة بأي حال أن المؤلف يعتبر هذه الحادثة شيئًا واقعيًا. إن حاجي خليفة يذكر عدم الاهتمام الذي كان سائدًا في بداية العصر الإسلامي ويذكر في ذيل ذلك رواية العامة بطريقة عامة، ومثال ذلك كأن يقول شخص بأن نابليون ادعى القيادة الإسلامية في مصر ونشر لذلك شبابيك كثيرة حتى أنه يقال أنه نطق شهادة التوحيد في جامعة الأزهر وصلّى مع الجماعة. وهذه طريقة ببيان شيء عام حيث يذكر خطيب أو كاتب مقال أضعف الروايات. والمهمّ أن نسبة إحراق مكتبة الإسكندرية إلى حاجي خليفة جرأة مدهشة لا يمكن أن يأتي بها إلا المؤرخون الأوربيون.

تبقى الآن شهادة عبد اللطيف البغدادي وفي الحقيقة هو الذي يعتبر السند الأخير للمؤرخين الأوربيين. وحقيقة ذلك أن عبد اللطيف كتب تاريخًا عن مصر واسم الكتاب هو "كتاب الإفادة والاعتبار في أمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر" وقد أتمّ الكتاب في عشر شعبان ٦٠٣ للهجرة، وموضوعه تلك

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحوادث والظروف التي شهدها عبد اللطيف بأم عينيه في مصر، وفيها حادثة بعنوان عمود السواري، وبيّن أحوالها وكتب أن حول العمود كان هناك أربعمائة عمود صغير، وبعد ذلك يذكر ضمنًا العبارة التالية:

"ويذكر أن هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق أرسطاطاليس الذي كان يدرس به الحكمة وأنه كان دار علم وفيه خزانة كتب حرقها عمرو بن العاص بإشارة من عمر ابن الخطاب".

ويستطيع كل شخص أن يفهم من سياق هذه العبارة ماذا أراد بها عبد اللطيف. إن قول عبد اللطيف يأتي تحت كلمة "يذكر"[1] وذلك لا يظهر أبدًا أنه يمنحه أهمية تاريخية أو يعترف بها. ويكتب السيد كريل الألماني في مقالته بعد نقل قول عبد اللطيف: "يظهر هذا البيان على سبيل الذكر وليس هناك غرض خاص منه وهو أيضًا ليس لتذكير لحادثة خاصة ولكنه إعادة لشيء مشهور ذكره السياح في ذلك العصر مرارًا". وهو يشبه تلك البيانات الغير موثوقة والمخالفة للعقل والتي انتشرت في العصور الوسطى عن مكانة بيت المقدس.

والشيء الممتع أن عبد اللطيف ولأنه ذكر ما يتناقله عامة الناس فإن الحوادث التي ذكرت في هذه الجملة كلها كانت خاطئة، لم يكن هذا المكان رواقًا لأرسطو، ولا درّس فيه أرسطو في أي يوم من الأيام، كاتب لمقالة في اسبكتيتر بتاريخ ١٣ يونيو يناقش هذه الحادثة، قد استدل على خطأ بيان عبد اللطيف بطريقة طريفة فيقول: حريق المكتبة ضعه جانبًا، إن الحوادث الأخرى المنقولة فيه أيضًا ليست صحيحة.

تدليس المؤرخين الأوربيين وخداعهم: هذه هي حقيقة الأسناد والروايات التي بنوا عليها إثباتهم ومن العجب الطريقة التي نهجها هؤلاء المؤرخون في التدليس في هذا النقاش، إن العبارات التي نقلناها لعبد

[1] وفي نسخة طبعت من مصر وهي مليئة بالأخطاء جاءت كلمة "أرى" بدلًا من "يذكر" فإذا اعتبرناها صحيحة فسيكون ذلك أيضًا الرأي الشخصي لعبد اللطيف.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللطيف وغيره تبيّن للقراء أن المقريزي لم يذكر هذه الحادثة بنفسه بل ذكر عبارة عبد اللطيف في ذكره لعمود السواري، وكان فيها بيان عن المكتبة ضمنًا. إن حاجي خليفة حتى اسم الإسكندرية، ولكنه ذكر المكتبات بشكل عام وذلك أيضًا بعد كلمة "يذكر" مما يظهر أنها ليس رواية موثوقة، لكن المؤرخين الأوربيين ذكروا اسم عبد اللطيف وكأنهم يدعون صحة هذه الحادثة، وكأنهم كتبوا عن ذلك مقالات مستقلة.

كتب البروفيسور دساسي في تعليقه على الانتقادات التي توجّه إلى بيان أبي الفرج اعتراضًا قويًا جدًا، وهو: "أن المؤرخين العرب سكتوا على هذه الحادثة العظيمة". وبعد ذلك يردّ البروفيسور دساسي على هذا الاعتراض ويستطرد: "ولكن قوة الاعتراض تخف حقًا بعد شهادة عبد اللطيف والمقريزي" والممتع أنه بعد هذه العبارة يضيف البروفيسور "مع أن الناس ينتهزون فرصة القول بأنما ذكره المقريزي ليس إلا نقل لفقرة عبد اللطيف" يكتب السيد كرشتن "إن هذه الحادثة ليست مستندة فقط على السند المذكور أعلاه (يعني بيان أبي الفرج) لكن المقريزي مع عبد اللطيف اللذين الّفا مؤلفات عن تاريخ مصر القديم قد ذكروها.

ويقول البروفيسور وايت رافعًا صوته "إننا نتجرأ أن نقدّم الشهادة الإثباتية لاثنين من المؤرخين العرب في مواجهة شهادة غبن العادلة ولا أحد يعترض على كونهما مستندين وهما من الأتباع المتعصبين لدين الإسلام، يعني عبد اللطيف والمقريزي اللذين لا يتحدان فقط على حادثة حرق المكتبة إنما يدلّان على المكان الذي كانت المكتبة قائمة فيه".

كيف استخدم البروفيسور وايت أسلوب الدهاء في هذا الموضع، إن عبد اللطيف قد ذكر الحادثة حينما ذكر العمود وذلك ضمنًا وكأنه شيء مسموع، ويحوّلها البروفيسور وايت إلى صورة يعتبرها الشخص الجاهل وكأن عبد اللطيف يريد أن يثبت هذه الحادثة بشكل مستقل، ولم يثبت الحادثة الأصلية فحسب بل حدّد مكانها ومحلها أيضًا.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مع أن المؤرخين الأروبيين الذين يريدون أن يثبتوا هذه الحادثة أسندوا رواياتهم على هؤلاء الثلاثة فقط يعني عبد اللطيف والمقريزي وحاجي خليفة، ونحن في هذا الموضع نناقش هؤلاء المؤلفين، لكن بعض المؤلفين الأروبيين تقدّموا في عملية التدليس أكثر وأظهروا بطريقة خادعة أن هناك شهادات متعددة أخرى لإثبات الحادثة، يقول السيد كرشتن في حاشية كتابه: "قد جمع السيد بيرنت دساسي في تعليقه الطويل الذي كتبه عن ترجمة عبد اللطيف (بيان مصر، ص ٢٤٠) شهادات مختلفة عن كتب المؤلفين العرب والتي توجد في المكتبة الملكية في باريس، ويصبح بيان أبي الفرج بهذه الشهادات موثوقًا به لكن غبن المغرور لم يشاهد هذه المؤلفات" ويمكن أن ينخدع بهذه العبارة أي شخص جاهل وخاصة الذي يحسن الظن بالمؤلفين الأوربيين ويتيقن أنه من المؤكد وجود مواد كثيرة في مكتبة باريس العظيمة عن هذه الحادثة، وإلا لما اشتهرت هذه الحادثة الخاطئة في أوربا كلها.

ولكن على قرائنا أن لا يتأثروا باسم باريس اللماع، إن تعليق دساسي والكتب التي أشار إليها أمامنا، ولا شك أنه أراد أن يثبت الحادثة بكل قوة، لكن للأسف إن القوة التي في فطرته ليست في دلائله، ونذكر هنا ترجمة لعبارته:

"إنما ذكره أبو الفرج في تاريخ العرب عن أمر عمر رضي الله عنه بتدمير المكتبة الإسكندرية شكّ فيه كثر من المؤلفين وفي بيان وتحديد أهمية ما كتب عن هذه الحادثة يجب أن يكون هناك نقاش كبير.إن الأدلة التي بنيت عليها هذه الشكوك موجودة في النقاش الذي طبعه هارد (Mchrainghard) عام ١٧٩٢م في غوتنك (Gottingue) ويؤيد موسيو لانغل ووائت الفكرة العامة في التعليقات التي أدرجها (M. de. Saine Croix) عن المكتبات القديمة في الإسكندرية في مجلة دائرة المعارف السنة الخامسة ص ٤٣٣، ولكنهما لا يقبلان البيان المبالغ فيه لأبي الفرج ومن أقوى الاعتراضات التي وجّهت إلى بيان أبي الفرج أن المؤرخين العرب سكتوا على حادثة عظيمة كهذه ولكن قوة الاعتراض ولا شك تخف بعد شعادة عبد اللطيف والمقريزي، ولو أنه يمكن القول بأن فقرة المقريزي وكما أشار موسيو لانغل ليست إلا نقل لفقرة عبد اللطيف، لا أريد أن أبارز عالمًا ومؤلفًا (موسيو لانغل) بالتعليقات التي سأذكرها فأنا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أفضّله وأحترمه من صميم قلبي ولكنني وجدت بعض الأسناد الجديدة الأخرى وأنا على يقين أن هذه الحادثة وكما ذكرها أبو الفرج ومع وجود بعض التفاصيل التي لا تقبل النقد ولكن الحقيقة إنها مبنية على أساس تاريخي وأن العرب حينما فتحوا هذه المدينة أمر عمر بن العاص بحكم من عمر بأن مجموعة تشتمل على كتب كثيرة في الإسكندرية توضع على النار"

بعد هذا نقل البروفيسور ديساسي عبارة حاجي خليفة وابن خلدون واستدل بها على حادثة مكتبة الإسكندرية.

كنت مشتاقًا إلى قراءة الأدلة الجديدة التي وجدها البروفيسور دساسي ولكنها لم تسفر عن شيء، فقد وجد البروفيسور المحترم دليلين فقط بعد أن قلّب المكتبة العظيمة لباريس، الأول هو نفس عبارة حاجي خليفة والتي ذكرناها آنفًا، والثاني فقرة من مقدّمة ابن خلدون والتي ذكرت فيها مكتبة إيران ضمنًا وإجمالًا، وهذا منطق عجيب أن تكون الدعوى بإحراق مكتبة الإسكندرية ويذكر اسم إيران في الدليل، ومع أن قول ابن خلدون هذا خاطئ تمامًا ويخالف التواريخ المستندة، لكننا لا نبحث ذلك في هذا الموضع، لأن مقالتنا عن مكتبة الإسكندرية وليست عن إيران.

ومن المحتمل أن يقال أن البروفيسور دساسي قدّم قول ابن خلدون كشهادة مؤيدة ولكن ذلك لا يتمّ الهدف،لأن النتيجة التي تستخلص من ذلك هي أن حادثة الإسكندرية ليس لها أي أصل، وإلا كما ذكر ابن خلدون حادثة إيران كان أي مؤرخ من المؤرخين العرب يذكر حادثة الإسكندرية بنفس الطريقة، مع أن آلاف التواريخ العربية لا تذكر أي شيء عن ذلك.

لا يمكن تقديم عبارة عبد اللطيف والمقريزي كدليل بأي حال، والممتع أن أبا الفرج وهو المدعى عليه من قبلنا في هذا النقاش لم يكتب أيضًا هذه الحادثة بالطريقة التي تثبت بأنه كان يعترف بها ويعتبرها صحيحة، إن التاريخ الأصلي لأبي الفرج باللغة السريانية والذي فصّل فيه أحوال فتح الإسكندرية لم يذكر هذه الحادثة، ولكن الخلاصة باللغة العربية نقلت فيها هذه الحادثة مثلما ذكرنا سابقًا، ولكن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ليس هناك ثقة تجاه هذه الخلاصة فهل الأشياء التي ذكرت مضافة إلى التاريخ السرياني هي في الحقيقة لأبي الفرج أم ألحقها شخص آخر؟ يكتب السيد كريل الألماني بالنسبة لهذه الخلاصة أن هناك أشياء كثيرة فيها والتي لا توجد في الأصل السرياني، ولا يعرف إن كانت هذه المواضع أضيفت فيما بعد أم ألحقها أبو الفرج بنفسه، لأن جميع النسخ لهذه الخلاصة ناقصة. وحادثة إحراق مكتبة الإسكندرية الموجودة في الخلاصة العربية غير موجودة في الأصل السرياني وبذلك يصبح احتمال الإلحاق قويًا، لأن البروفيسور بوكاك قد طبع الخلاصة باهتمامه وتصحيحه وكان ماهرًا جدًا في تخليق الأحداث ضد المسلمين.

كل هذا النقاش كان لمعرفة إن كان عبد اللطيف وحاجي خليفة قدّما شهادة تتعلق بهذه الحادثة أم لا، ولكن إن نسلم بأنهما قد اعتبرا الحادثة صحيحة، ينشأ نقاش آخر وهو هل شهادتهما بالنسبة لهذا الأمر موثوقة أم لا؟ ولد عبد اللطيف البغدادي سنة ٥٥٧هـ، وأما حاجي خليفة فلم تمض عليه إلا مائتا سنة، ومن يمكنه أن يقول بأن الشهادة تكون موثوقة من قبل أشخاص ولدوا بعد الحادثة بخمسمائة سنة ولم يذكروا لها سندًا أو إشارة.

ما هي منزلة عبد اللطيف وحاجي خليفة؟ نريد أن ننظر إلى هذين المؤلفين والدرجة التي يتمتعان بها في فن التاريخ، لأن المؤرخين الأوربيين استخدموا أسلوب التدليس حتى في هذا الأمر، إنهم يمدحون حاجي خليفة وعبد اللطيف بكلمات رائعة وأنه يجب الاستسلام لقولهما بسبب عظم المكانة التي يحتلانها. وهناك سؤال صغير يكفي لكشف خداع هؤلاء المؤلفين الأوربيين. نحن أيضًا نعترف بأن عبد اللطيف وحاجي خليفة من المؤلفين الكبار ولكن السؤال هو: يا ترى في أي علم؟ بدون شك كان عبد اللطيف طبيبًا كبيرًا وله مؤلفات عديدة في علم الطب، وقد ذكره ابن أبي الأصيبعة في طبقات الأطباء بتفصيل، ونعرف بذلك عن ثقافته الطبية وعظم شأنه ولكن هل قال شخص أنه مؤرخ أو أنه ذكر في حياته فن التاريخ؟ وإذا لم يكن هذا فما دور عظمته وشأنه في الحوادث التاريخية؟ فإذا كتبت حادثة تاريخية بالإشارة إلى الفارابي وابن سينا فإلى أي حد تكون موثوقة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولا شك أن حاجي خليفة قد ألّف كتابًا مفيدًا للغاية بعنوان "كشف الظنون" إلا أنه ليس بكتاب للتاريخ، بل هو فهرس للمؤلفات المتعلقة بالإسلام، ولا نجد عملًا آخر لحاجي خليفة غير ذلك، فإنه لم يؤلّف كتابًا في التاريخ ولم يعتبره أحد من المؤرخين.

والحقيقة أن هذا موضع خجل لمعارضينا بأن لا يجدوا لحادثة عظيمة الشأن والتي استمرت لستة أشهر حسب اعتقادهم، لا يجدوا لها أي سند في الآلاف من كتب الإسلام، وأن يضطروا إلى الالتجاء إلى طبيب وكاتب فهارس.

الدعوى بخطأ الحادثة الافتراضية وإثبات دعوى النفي: إلى هنا ما ناقشناه كان باعتبار كون معارضينا هم المدعين، لأنه بحسب أصول المناظرة هم المدعون في الحقيقة، لكننا نعتبر أنفسنا مدعين أكبر منهم ونقول بأن سيدنا عمر رضي الله عنه لم يخرب المكتبة ولم يخربها المسلمون في أي زمن، ولكن في البداية علينا أن نفهم كيفية الاستدلال رواية ودراية عن الدعوى التي تكون في صورة النفي، فمثلًا إذا ادعي أن الحادثة الفلانية لم تحدث في العصر الفلاني، فيكون دليلها بحسب الرواية أن كل المصادر التي تتعلق بالمعرفة عن ذلك العصر لا تذكر تلك الحادثة، وبحسب الدراية أن كل القرائن والشهادات تخالف أدلة إثبات الحادثة، ومن نفس وجوه الاستدلال هذه ندعي أن مكتبة الإسكندرية لم تخرب بأيدي المسلمين أبدًا.

التواريخ البدائية للإسلام: بدأ التصنيف والتأليف في الإسلام من عام ١١٤ للهجرة، وفي هذه الفترة ألّف محمد بن إسحاق أول كتاب للتاريخ وهو في أحوال الرسول ﷺ، وكتب المؤلّفون بعد ذلك تواريخ عامة ذكرت فيها فتوحات الخلفاء الراشدين والأحداث بالتفصيل. والمؤلفات التي توجد الآن أو تعرف أسماؤها من ذلك العصر هي:

• فتوح البلدان للبلاذري. كان البلاذري في عهد المتوكل وذكر جميع الأحداث في تاريخه بسند متصل.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

• تاريخ اليعقوبي يعني تاريخ أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العباسي. كاتب قديم من معاصري أصحاب بلاط مأمون الرشيد، كتب هذا التاريخ إلى سنة ٢٥٩هـ والغالب أنه كان حيًا في تلك السنة. يحتوي الكتاب على مجلدين، وطبع في ليدن سنة ١٨٨٣م.

• تاريخ أبي حنيفة الدينوري، طبع في ليدن.

• التاريخ الكبير لأبي جعفر بن جرير الطبري، ولو أن هذا التاريخ متأخر بعض الشيء لأن مؤلفه توفي عام ٣١٠هـ يوافق ٩٢٢م، ولكنه كتب جميع الأحداث بسند متصل، وذكر أسماء جميع الرواة في كل رواية وهو مخزن لجميع الورايات التي ترتبط بالتاريخ الإسلامي والموجودة حتى الآن أو التي كانت موجودة، وعلى هذا الأساس من الصحيح أن نقول إن الحوادث لثلاثة قرون والتي لا توجد في هذا الكتاب لا تعتبر تاريخًا، إنه كتاب ضخم له اثنا عشر مجلدًا، طبع في هولندا وبقيت عدة مجلدات أخرى.

إن تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والتي تعتبر موثوقة جدًا ما هي إلا خلاصة لتاريخ الطبري وقد اعترف بذلك هؤلاء المؤرخون بأنفسهم، وقد كتبت عن الإسلام كثيرًا من الكتب إضافة إلى هذه التواريخ، ولكن بالنسبة للأحداث القديمة تعتبر هذه الكتب القليلة المذكورة سابقًا هي مصادرها، ويظهر ذلك من مشاهدة ومطالعة هذه الكتب. إضافة إلى هذه الكتب هناك كتب عديدة ألّفت في بيان الأحوال الخاصة لمصر والإسكندرية، وما استطعنا أن نكتشفها هي:

خطط مصر لأبي عمر الكندي (ت٢٤٦هـ)، وكشف الممالك لابن شاهين (ت٣٨٥هـ)، وتاريخ مصر لعبد الرحمن الصوفي (ت٣٤٧هـ)، وتاريخ مصر لمحمد بن بركات النحوي (ت٥٢٠هـ)، واتعاظ المتأمل إلى ٧٢٠هـ، وتاريخ مصر لمحمد بن عبد الله (ت٤٢٠هـ)، وتاريخ مصر للقفطي (ت٦٤٦هـ)، وتاريخ مصر لقطب الدين الحلبي (ت٧٣٥هـ)، وتاريخ مصر ليحيى الحلبي (ت٦٤٠هـ)، والانتصار لابن دقماق (ت٨٠٩هـ)، وعقود الجواهر، ونزهة الناظرين، والدرة المضيئة، وأشرف الطرف، ونزهة السنة، وتفريج الكربة، وفرائد السلوك، وبدائع الظهور، وتحفة الكرام بأخبار الأحرام، وإعلام بمن ولّي مصر في الإسلام، وتاريخ لإبراهيم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بن وصيف، وجواهر البحور، ومختار للقضاعي، والنقط المعجم، والروضة البهية، والمواعظ والاعتبار للمقريزي، وجواهر الألفاظ، واتعاظ الحنفاء، والنجوم الزاهرة وتاريخ مصر لابن عبد الحكم.

ولو أنه لا يمكن الحصول على جميع هذه الكتب الآن ولكن توجد في العصور المتأخرة كتب جمع فيها جميع روايات الكتب القديمة مثل حسن المحاضرة للسيوطي والذي كتب السيوطي في مقدمته أنه اطلع على ثمانية وعشرين تاريخًا وأعدّ منها كتابًا، والكتاب المفصّل والأبسط هو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار من تأليف المقريزي والذي تتبع فيه حتى الأحداث الجزئية لمصر والإسكندرية.

إن كل الكتب التي ذكرت سابقًا والتي ليس بين أيدينا مصدر آخر غيرها لمعرفة أحوال ذلك العصر، لا تذكر الحادثة التي نناقشها، وتحتوي هذه الكتب وخاصة الطبري، وفتوح البلدان للبلاذري، وحسن المحاضرة، والخطط والآثار للمقريزي على الأحوال التفصيلية لفتح الإسكندرية ولكنها لا تذكر المكتبة.

هذه هي الكتب التي كان من المؤكد ذكر الحادثة فيها إن كانت قد وقعت، لكن المؤلفات التي يحتمل أن الحادثة تجد فيها مكانًا ولو ضمنًا ومصادفة لم تذكرها أيضًا. مثلًا الكتب التي ألّفت في أحوال الأطباء ويذكر فيها يحيى النحوي عمومًا، فعندما اختلق أبو الفرج هذه القصة كانت أثناء ذكر يحيى النحوي وذكر أن يحيى طلب المكتبة من عمرو بن العاص، وفي الرد على ذلك أمر عمرو وبحكم من عمر بإحراق المكتبة، كان يحيى طبيبًا وفيلسوفًا وترجمت جميع كتبه إلى العربية، ولذلك تحتوي التواريخ العربية التي تذكر أحوال الأطباء والحكماء على ذكر مفصّل ليحيى وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء وابن النديم في كتاب الفهرست جميع أحوال يحيى وأسماء مصنفاته، وكتب أيضًا أنه حضر إلى عمرو ابن العاص رضي الله عنه وأكرمه عمرو، يقول ابن النديم: "ولما فتحت مصر على يدي عمرو بن العاص دخل إليه وأكرمه ورأى له موضعًا" ولا يوجد ذكر للمكتبة في كل هذه التصريحات وهذا يعلن أن الحادثة لا أصل لها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إضافة إلى هذه المؤلفات فالمؤلفات الأخرى مثل الكتب الجغرافية، الرحلات، السير، كانت من الممكن ذكر الحادثة فيها ضمنًا ولكن ليس هناك أثر لها، والحقيقة أنه إذا ادعي بأن التراث الإسلامي خال تمامًا من هذه الحادثة إلا عبارة عبد اللطيف والتي بيّنا حقيقتها سابقًا، لكان هذا الدليل القاطع على عدم صحة هذه الحادثة.

وفوق ذلك لا نجدها في التواريخ المسيحية القديمة نفسها، فقد كتب يورتيكس المتوفى ٩٤٠م، والذي كان بطريق الإسكندرية في القرن العاشر للميلاد، الأحوال المفصّلة لفتح الإسكندرية وكذلك الكين الذي عاش بعد الحادثة المفترضة بثلاث مائة سنة يعني قبل أبي الفرج بمئتي سنة، كتب تاريخ مصر أثناء مكوثه في مصر نفسها، وبيّن أحوال فتح الإسكندرية بالتفصيل ولكن لا يوجد حرف واحد عن الحادثة المذكورة، كانا مؤلفين مسيحيين متعصبين ولا يمكن أن يؤيدا المسلمين دون داعٍ، ومع هذا كانا محققين وصاحبي علم، ولم يكن شيئًا بسيطًا بالنسبة لهما أن تضيع ثروة علمية كبيرة كهذه، وبسبب إقامتهما في مصر واهتمامهما الذاتي كانت لديهما وسائل معلومات واسعة عن مصر، ومع كل هذا فعدم كتابتهما عن الحادثة المذكورة حرفًا واحدًا لدليل على عدم صحتها. ولذلك فإن المؤلفين الأوربيين المنصفين مثل غبن وكريل استدلوا على عدم صحة الحادثة بهذه الأدلة.

والدليل القوي على أن هذه الحادثة لا أساس لها من الصحة أن المكتبة التي يذكر إحراقها كانت قد خرّبت قبل العصر الإسلامي، وحقيقة ذلك أن هذه المكتبة أنشأها ملوك مصر الذين كانوا يعبدون أصنامًا وآلهة متعددة، وعندما انتشرت الديانة المسيحية في مصر بدأ الملوك المصريون تدمير هذه الكتب بسبب تعصبهم الديني، وشجّع البطارقة نياتهم وأعمالهم، وقد اضطر المؤلفون المعروفون والمؤرخون الأوربيون بالاعتراف بأن المكتبة كانت قد دمّرت قبل الإسلام، ألقى موسيو رينان وهو عالم فرنسي مشهور محاضرته في الجامعة بعنوان "الإسلام والعلم" وقد طبعت هذه المحاضرة في شكل كتيب في باريس عام ١٨٨٣م، ولو أن هذه المحاضرة معارضة للمسلمين ومليئة بالتعصب، بمعنى أنه أراد أن يثبت أن الإسالم والعلم لا يمكن جمعهما أبدًا، لكن هذا الشخص

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المتعصب يقول عن مكتبة الإسكندرية: "يقال مرارًا أن عمرًا خرّب مكتبة الإسكندرية ولكن ذلك ليس بصحيح، إن المكتبة المذكورة دمّرت قبل ذلك العصر".

كتب السيد كريل تفاصيل هذه المكتبة الملكية في مقالته وفصّل تاريخ خرابها عبر العصور بالتفصيل، ولكن لأن مقالة السيد كريل موجودة في نهاية الكتيب كملحق فلا ننقلها هنا، إن خراب هذه المكتبة واقع لا يمكن إنكاره للمؤرخين الأوربيين الذين يريدون إثباتها، يكتب السيد دريبر في كتابه أن يوليوس قيصر أحرق أكثر من نصف الكتب وسمح بطارقة الإسكندرية بتوزيع النصف الباقي، بل قاموا بتوزيعها تحت مراقبتهم" ويذكر دسيس بوضوح "أنه بعد عشرين سنة من هذه الحادثة حصل ثيوفليس من الإمبراطور ثيوديسس على السماح المكتوب لتدمير المكتبة وقد رأيت رفوفها فارغة".

ولأن خراب هذه المكتبة أمر أكيد فاستخدم المعارضون خداعًا آخر، بمعنى أنهم ادعوا أن المكتبة التي خرّبها عمرو لم تكن المكتبة الملكية ولكن مكتبة سرابيم، ولذلك يشير كاتب المقال لإسبيكتيتر إلى مكتبة سرابيم في تأييده لأبي الفرج، لكنه توجيه القول بما لا يرضى به قائله، لأن أبا الفرج وفي الموضع الذي يذكر فيه أن يحيى النحوي طلب الكتب من عمرو بن العاص، يكتب بوضوح هذه الكلمات: "كتب الحكمة التي في خزائن الملوكية" ولكن وإن نستسلم بأن هذه الحادثة ترتبط بمكتبة سرابيم، فمن الصعب أن يثبت المعارضون بأن مكتبة سرابيم كانت موجودة عند فتح الإسندرية، بل سيثبت أن المكتبة المذكورة قد خرّبت كلها أو الجزء الأكبر منها من قبل.

يكتب السيد كريل أن سرابيم ومكتبها في ظلام تام إلى الآن، نحن نعلم أن معبد سرابيم والمكتبة الملحقة به حوّلت إلى كنيسة في عهد ثيودوسيس سنة ٣٨٩م، ولكن ذلك لا يثبت أبدًا إن كانت هذه المكتبة موجودة وقت التحويل أم خرّبت، أو أن الكتب انتقلت إلى القسطنطينية، والرأي الأخير بنقل الكتب إلى القسطنطينية أقرب إلى الصواب، لأن المكتبة التي أسّسها ثيوديسيس الثاني في القرن الخامس في القسطنطينية جهّزت بكتب من مصر وآسيا الصغرى في أغلبها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكتب مسيو سيديو الفرنسي بعد اعترافه بأن المكتبة التي يدور عنها النقاش كانت موجودة في سرابيم: "لم يذكر مورخ معاصر هذه الحادثة (خراب عمرو بن العاص للمكتبة) ولكن إن كانت صحيحة فقد تكون مرتبطة ببضعة كتب لأن أجزاء من هذه المكتبة دمّرت في سنة ٣٩٠م في عهد قيصر وفي عهد ثيوديسوس".

والآن نريد أن نحقّق هذه الحادثة وصحّتها أو عدمها حسب أصول الدراية، فالخصائص التي ذكرها أبو الفرج (وهو الموجد الأول لهذه القصة الافتراضية) خاطئة تمامًا لدرجة أن المؤرخين الأوربيين سواء كانوا مؤيدين أو معارضين، يعتبرونها باطلة، بروفيسور ديساسي والذي أراد أن يثبت هذه الحادثة بكل شدة اعترف بأن التفاصيل التي ذكرها أبو الفرج ليست بصحيحة، وسخر أيضًا كتّاب دائرة المعارف البريطانية من ذلك، وفي الحقيقة فإن توزيع مكتبة على الحمامات (والتي يبلغ عددها أربعة آلاف) وإحراق الكتب لمدة ستة أشهر واتخاذها وقودًا ليست إلا أسطورة، ومع أن أبا الفرج لم يذكر عدد الحمامات في مصر ولكن من المعروف أنها كانت أربعة آلاف، لذلك تصبح حمامات مصر والعدد أربعة آلاف مرتبط بعضها بالبعض، مثلما فهم أغلب المؤرخين الأوربيين، فإذا رأينا تناسب العدد أربعة آلاف إلى عدد الحمامات، ندرك أن الحمام الواحد لا يحتاج إلى كتاب كامل بل الحاجة لا تتجاوز نصف كتاب، فإما أن هذه الحمامات كانت صغيرة إلى درجة أن كتابًا أو نصف كتاب كان كافيًا، أو أن الكتب كانت ضخمة لدرجة أن نصف الكتاب كان كافيًا ليكون وقودًا لحمام ليوم كامل.

ومعلوم أن الكتب في تلك الفترة كانت تكتب على صفحات من الجلد، ولا يمكن استخدامها كوقود ولذلك فإن استخدام الكتب لهذا الغرض غير لائق، يكتب السيد دريبر: نحن على يقين بأن أصحاب حمامات الإسكندرية لم يكونوا ليحرقو صفحة الجلد (والتي كتبت عليها الكتب) إن كان لديهم أي شيء آخر للإحراق، والجزء الأكبر من هذه الكتب كان من صفحات الجلد".

إن الذين اختلقوا هذه القصة كان هدفهم إساءة سمعة المسلمين ولكنهم لم يفكّروا أنه بسبب ذلك يصبح المسيحيون متهمون أكثر من المسلمين، فإذا لم يكن ذنب عمرو بن العاص سوى أنه أرسل

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكتب إلى الحمامات، إلا أن أصحاب الحمامات كانوا مسيحيين وكان من الممكن أي يحافظوا على الكتب أو يستخدموا بدلها وقودًا آخر، ولم يقم عمرو بن العاص في الإسكندرية بعد الفتح لمدة ستة أشهر حتى يكون هناك خوف من الاستجواب.

ولو أن هذه المقاييس السريعة والمفهومة عامة كافية لإبطال الحادثة المختلقة، ولكن إذا أمعنا النظر فالأمور تصبح واضحة أكثر إذا رأينا إلى الحادثة بنظرة الدراية، فعلينا أن نأخذ بعين الاعتبار الأمورالتالية: كيف وبأي شروط تم الاستيلاء على الإسكندرية والبلدان التي تم فتحها بنفس الشروط؟ كيف كان التعامل هناك؟ كيف كانت طريقة عمر رضي الله عنه بصورة عامة في مثل هذه المواضع؟ ماذا كانت طبائع وكيف كانت فطرة عمرو بن العاص رضي الله عنه؟ هل نجد آثارًا لكنوز الإسكندرية في الإسلام؟ إن الرد على كل سؤال يمكن أن يفصل في هذا النقاش.

إن أمر دخول الإسكندرية بعد الفتح في العهد الذمي ثابت بالتواريخ الصحيحة، أي أن كل سكأّن الإسكندرية تقرر عنهم بأنهم ذميون. يكتب البلاذري في فتوح البلدان وهو مؤلف قديم ومؤلفه يذكر الحوادث بسنده ورواياته:

ثم إن عمرًا افتتحها بالسيف وغنم ما فيها، وأبقى أهلها ولم يقتل ولم يسب وجعلهم ذمة".

وهي نفس كلمات ابن الأثير، وابن خلدون وغيرهم.

من الحقوق التي منحت للذميين كان في مقدمتها أنه لا يتعرض أحد لحياتهم، ومالهم، ونقدهم، وأمتعتهم، ومواشيهم، وبيوتهم، وقد نقلت في جميع التواريخ العهود المكتوبة لفتوحات فارس والروم، وكلها تراعي هذا الحق. وكلمات وثيقة مصر هي: "هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، ودمهم، وأموالهم، وصاعهم، ومدّهم، وعدوهم".

ونقل في معجم البلدان برواية صحيحة أن الكلمات التالية كانت ضمن الوثيقة:

"وأن لهم أرضهم وأموالهم لايتعرضون في شيء منها".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وليس هذا موضع ذكر تفاصيل سلوك عمر رضي الله عنه مع أهل الذمة، فقد حدّد منحة يومية للفقراء من الذميين من بيت المال، وما أكبر من الوصية التي أوصاها حين وفاته ضمن الوصايا الثلاث: "أوصي الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم".

إن المؤلفين الأوربيين المتعصبين ومع كونهم يشكون من شدة وقسوة عمر رضي الله عنه إلا أنهم لا يمكنهم أن ينكروا أن كل ما خرج من لسانه وقلمه في أي وقت نفذ حسب أمره، ولم يستطع أكبر المتعصبين من المؤرخين المسيحيين أن يذكروا ولو حادثة واحدة تثبت التعارض بين عمله وقوله.

وبعد أن تحدّد أن أهل الإسكندرية اعتبروا ذميين وما كان سلوك عمر مع الذميين معروف بالتفصيل، فكيف يمكن أن يخرّب تذكار كبير لأهل الإسكندرية (المكتبة) بهذه القساوة؟ هل كانت هذه المكتبة مكروهة لدى المسلمين أكثر من الكنائس ومعابد النار؟ ومع وجود آلاف الكنائس ومعابد النار في جميع البلدان المفتوحة وكتابة الكلمات التالية للحفاظ عليها: "لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة داخل المدينة ولا خارجها"، فكيف يمكن أن يكون هذا السلوك الظالم تجاه المكتبة؟

الحقيقة أن أبا الفرج لم يتعلم حتى كيف يكذب، فإذا كان قد ذكر هذه الحادثة في وقت الحصار والفتح لكانت دخلت مجال القياس، لأن الهجوم والتنافس لا يباليان بشيء، ولكن بعد الاعتراف بأن الأمن أعطي للمدينة وأهل المدينة أصبحوا ذميين وهدأت ثورة الهجوم والمعركة، ثم يأتي عمل ظالم كهذا، فلا يكون إلا في مقاييس أبي الفرج، وعلى هذا الأساس اعتبر السيد سيديو بيان أبي الفرج غير موثوق به فيكتب: "عندما تم الاعتراف بأن المدينة لم تخرب في الوهلة الأولى بعد الحرب، فمن الصعب التيقن بأن شيئًا وحشيًا كهذا قد أمر به بعد أن هدأت ثورة الفاتحين" وقد اعترف أبو الفرج بنفسه بحكمة وذوق عمرو بن العاص، فيكتب في ذكره ليحيى النحوي: دخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من ألفاظه الفلسفية التي لم تكن للعرب بها أنسة، وكان عمرو عاقلًا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لا يفارقه".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وفكّروا الآن كيف يمكن لشخص حكيم ومحب للعلم والذي بالرغم من حميته الدينية يتخذ من عالم مسيحي رفيقًا وصديقًا يستمتع معه في المناقشات العلمية والفلسفية، كيف يمكنه أن يخرّب مكتبة الإسكندرية بكل هذه القسوة ولهذه الفترة الطويلة، وهو عمل لا يقوم به حتى أجهل الجهلاء، نعترف بأنه لم يكن مخيرًا ولكن كان بإمكانه أن يتوسط للمكتبة في الرسالة التي كتبها لعمر رضي الله عنه، وقد استأذن عمرو رضي الله عنه سيدنا عمر بالإلحاح في كثير من الأمور، فمثلًا كان عمر لا يرضى بمهاجمة مصر والإسكندرية لكن عمر أجبره وتحمل المسؤولية بأن فتحها ليس بصعب، وعندها سمح له عمر ، حتى أن العلامة البلاذري وهو مؤرخ مستند ومشهور يروي أن عمرو بن العاص لم ينتظر السماح من عمر، وبدأ رحلته إلى مصر، والأمر المعروف أن شرط فتح مصر والإسكندرية والشروط التي دوّنت في المعاهدة كانت كلها من رأي عمرو، ثم أبلغوا بها عمر ووافق على ذلك. فلماذا لم يستطع عمرو بن العاص أن يفعل الشيء نفسه في شأن المكتبة؟

والأعجب أن الرسالة التي أرسلها عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية إلى بلاط الخلافة فصّل فيها كل شيء، لذلك فبعد ذكر الفتح يكتب: "يوجد في هذه المدينة أربعة آلاف حمام، وأربعة آلاف قصر، وأربعون ألفًا من اليهود الذين يدفعون الخراج، وأربعمائة من المتنزهات الملكية واثنا عشر ألف حديقة والتي تباع خضارها" ولكن لا نجد في كل هذه التفاصيل مكتبة صديقنا أبي الفرج.

بعد الإمعان في كل الحوادث التاريخية تظهر أمامنا الحقيقة بأن جميع المكتبات القديمة في الإسكندرية كانت قد خربت قبل العهد الإسلامي، والتي كتب تفاصيلها المؤرخون ولكن بالرغم من كل هذه الآفات لم تكن الآثار العلمية معدومة تمامًا، وفي المدينة التي كانت دارًا للعلوم لآلاف السنين من المستحيل أن تصبح فيها التذكارات العلمية معدومة في لحظة واحدة، لذلك نرى أنه قبل العصر الإسلامي بقليل كان فيه سبعة من الأطباء والفلاسفة المشهورين وأسماؤهم هي: أسطفن وجاسيوس وثادودسيوس وأكيلاؤس وأنفيلاؤس وفلاديوس ويحيى النحوي، وكان يحيى النحوي أكبرهم سنًا وبقي على قيد الحياة إلى زمن عمرو بن العاص، كانت مكتبات الإسكندرية دمّرت قبل فترة طويلة ولكن الثروة العلمية المتوفرة في العصر

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اللاحق كنت موجودة وقت الفتح الإسلامي وبقيت بعد ذلك أيضًا. لذلك عندما بدأ البحث عن التذكارات العلمية في العهد العباسي وجدت في الإسكندرية ذخيرة يعتد بها. وذهب عمال هارون الرشيد ومأمون الرشيد والمتوكل الذين كانوا يجوبون الشام، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وقبرص بحثًا عن المؤلفات الفلسفية والطبية إلى الإسكندرية أيضًا لنفس الهدف وحصلوا على كثير من الكتب، كتب حنين بن إسحاق: "في بحثي عن كتاب البرهان لجالينوس جبت الجزيرة والشام وفلسطين وجميع مدن مصر إلى أن وصلت إلى الإسكندرية ولكني لم أحصل على الكتاب المذكور، حصلت فقط في دمشق على بعض أجزائه ولكنها كانت غير مرتبة". ومع أن حنين لم يستطع الحصول على هذا الكتاب لأن المكتبات القديمة كانت قد خرّبت قبل الإسلام إلا أن مؤلفات العصور اللاحقة والتي كانت محفوظة إلى بداية العصر الإسلامي وجدت كاملة. والحكماء الذين ذكرت أسماؤهم وجدت جميع مؤلفاتهم محفوظة، وترجمت إلى اللغة العربية، وقد اعتني بكتب يحيى النحوي أكثر، لذلك فإن كتبه التي ترجمت إلى العربية بعض منها ما يلي:

تفسير كتاب قاطيغورياس لأرسطو، وتفسير كتاب أناطوليقا الأولى لأرسطو، وتفسير كتاب أناطوليقا الثاني لأرسطو، وتفسير كتاب طوبيقا لأرسطو، وتفسير كتاب السماع الطبيعي لأرسطو، وتفسير كتاب الكون والفساد لأرسطو، وتفسير كتاب مابال لأرسطو، وتفسير كتاب الفرق لجالينوس، وتفسير كتاب الصناعة لجالينوس، وتفسير كتاب النبض الصغير لجالينوس، وتفسير كتاب أغلوفن لجالينوس، وتفسير كتاب الأسطقسات لجالينوس، وتفسير كتاب القوى الطبيعية لجالينوس، وتفسير كتاب التشريح الصغير لجالينوس، وتفسير كتاب العلل والأعراض لجالينوس، وتفسير كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنية لجالينوس، وتفسير كتاب النبض الكبير لجالينوس، وتفسير كتاب الحميات لجالينوس، وتفسير كتاب البحران لجالينوس، وتفسير كتاب أيام البحران لجالينوس، وتفسير كتاب منافع الأعضاء لجالينوس، وتفسير كتاب تدبير الأسحار لجالينوس، وتفسير كتاب المزاج لجالينوس، وجوامع كتاب الترياق لجالينوس، وجوامع كتاب الفصد لجالينوس، وكتاب الرد على برقلس، وكتاب في أن كل جسم متناه فقوته متناهية، وكتاب الرد على أرسطو، وكتاب الرد على تطورس، وشرح إيساغوجي لفرفوريوس، إضافة إلى ذلك هناك كتب أخرى نجد تفاصيلها في

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

طبقات الأطباء، وكتاب الفهرست لابن النديم. وإذا كانت مكتبة الإسكندرية دمّرت في عصر عمرو ابن العاص لكانت كتب يحي النحوي أول شيء يدمّر والذي كان معاصرًا لعمرو بن العاص وحسب قول أبي الفرج مسؤولًا عن المكتبة المذكورة.

المهم أن الثروة التي كانت موجودة في مصر والإسكندرية في العصر الإسلامي لم تكن لتضيع، أما ما تلف قبل الإسلام فلم يكن بالإمكان إرجاعه مرة أخرى، ونعلم من التواريخ أنه إن وجد شيء من الزمن القديم وبقي إلى العصر الإسلامي فإنه لم يدّمر بل احتفظ به فيما بعد بكل عناية كتذكار قيّم، يكتب ابن البندي وهو من سكّان مصر وماهر في علم الأسطرلاب: "زار الوزير أبو القاسم علي بن أحمد الجرجاني مكتبة القاهرة في عام ٤٣٥ للهجرة وأمر القاضي أبو عبد الله القضاعي وابن خلق الوراق أن يعدّا فهرسًا للكتب ويصلحا أغلفة الكتب التي فسدت، وقد ذهبت إلى هناك مع الأكابر حتى أطّلع على الكتب التي تناسب ذوقي فكانت الأجزاء التي تتعلق بالنجوم والهندسة والفلسفة فقط تبلغ ستة آلاف وخمسمائة، وفي نفس الموضع رأيت كرة من النحاس من صناعة يد بطليموس، حاولت أن أقدّر قدمها فثبت بالحساب أنها قديمة ألفين ومئتين وخمسين سنة، ووجدت في نفس الموضع أيضًا كرة من الفضة والتي صنعها أبو الحسن الصوفي لعضد الدولة وكانت تزن ثلاثة آلاف درهم واشتريت بثلاثة آلاف دينار.

ومع أننا قد فصلنا النقاش بالبحث بالأصول الاجتهادية فلا نبالي إن كان مؤرخو أوربا يؤيدوننا أم لا، ولكن لأصحاب التقليد وخاصة أولئك الذين يحسنون الظن بأوربا، من الضروري أن نقول لهم أن الحادثة المفترضة كانت مسلمًا بها في عصر معيّن في أوربا، ولكن كلما تطوّر التحقيق والبحث التاريخي نقصت صحة الحادثة بنفس النسبة، حتى أن أغلب المؤلفين المعاصرين الآن يعتبرونها خاطئة ومشكوك فيها. إلى اليوم وصلنا إلى هذا والأمل أنه سيأتي اليوم الذي تقول فيه أوربا متفقة بعد الإمعان والتحقيق:

سُلِلْنَا بالذي كُنّا، لأمدٍ، في رمايتهم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رواج المكتبات الإسلامية

هذا تاريخ موجز للغاية للمكتبات الإسلامية، ولو أنّ أحدًا لا ينكر أن المسلمين كان شعارهم القومي ترتيب وصيانة الكتب والذخائر العلمية، وعلى هذا فلا نجد في تاريخ العالم نظيرًا لكثرة المكتبات ودُوْرِ العلم المتواجدة في الحكم الإسلامي ولكن، بالرغم من ذلك، نتعجب من أنه لم يؤلّف كتاب ولا مقالة في تاريخ هذه المكتبات وأخبارها، فعندما يكتب المسلمون أخبار وأوضاع مدينة في كتبهم الجغرافية يشرحون مبانيها من كل نوع ولكنهم لا يذكرون حتى اسمها. وهذه هي الفكرة التي شجّعتني على أن أكتب هذه المقالة ولو أني أعترف بأن المقالة يجب أن تكون مسهبة طبقًا لعنوانها ولكن الوقائع التي غفل عنها الأقدمون لا نكاد نجمع عنها سوى قليل من المعلومات فليقتنع قراؤنا على هذا القدر من المعلومات.

ولو أن هذه المقالة تختص بعنوانها ولكنها كذلك تقدر على أن تفصل عن أمرين خطيرين لم يزالا موضوعي بحث في الدول المثقّفة منذ زمن طويل، وقد ارتكب فيهما كبار الكتّاب والمحققين أخطاءً ملؤها العصبية، وذانك الأمران كما يلي:

١. كيف عامل المسلمون معالم الناس غيرهم؟

٢. مدى ثقتنا بأخبار الأمم الأجنبية التاريخية التي ضبطها المسلمون

متى بدأت الكتابة في جزيرة العرب؟ ولو أن عصر جمع الكتب في الإسلام وترتيبها في المكتبات يبتدئ بعصر بني أمية ولكن البحث عن كيفية جمع التراث العلمي المتواجد في عصر بني أمية يتطلب منا أن نرجع إلى ما سبقه من العصور، فلو أن الشعر والأنساب كانا موضوع كل جلسة وندوة منذ قديم الزمان في العرب ولكن الكتابة لم تكن رائجة البتة، فأول من أسّس هذا الفن كانوا ثلاثة أفراد من قبيلة طي وهم مرامر وأسلم وعامر، اجتمعوا في مكان على وضع الأشكال والصور للحروف وقرّروا حروف الهجاء على طراز أحرف السريانية فتعلّم عليهم أهل حيرة، فأحد تلامذة أهل الحيرة الذي كان يسمّى بشر بن الوليد والذي كان رئيس دومة الجندل، سافر إلى مكة المعظمة لحاجة، فلقي بها أبا سفيان والد الأمير معاوية فطلب

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

منه أبو سفيان أن يعلّمه الكتابة فتلمذ له أبو سفيان وأبو قيس بن عبد مناف، وبما أنهما كانا يترددان إلى الطائف للتجارة، فراجت الكتابة في الطائف كما علّم بشر العديد من أهالي مصر والشام ومن ثم عمّت الكتابة معظم قبائل العرب، حتى عندما جاء الإسلام تواجد في قريش ١٧ فردًا يعرفون الكتابة ومنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح، وكذا راج هذا الفن في النساء فكانت شفاء بنت عبد الله وحفصة بنت عمر تعرفان القراءة والكتابة، وكذا عمّت الكتابة المدينة المنورة قبل مجيء الإسلام فيها والتي أوجدها اليهود[١].

ومن أكبر فوائد هذا الفن أنهم جعلوا ينسخون القصائد والأشعار التي كانت صورة حقيقية لتمدن العرب وثقافتهم والتي كانت تروى إلى الآن أبًا عن جد، وهذا الفن لعب دورًا رياديًا في صيانتها وعلى هذا فقد كتبت سبع قصائد مشهورة بالمعلقات بماء الذهب على القباطي فعلّقت على جدران الكعبة.

وما توفّر لنا من التراث المكتوب منذ ظهور الإسلام حتى وفاة الرسول ﷺ كان يشمله بعض سور القرآن، رسائل الرسول ﷺ واتفاقية صلح الحديبية وما عداها وقصائد الشعراء، فلو أن الكتابة اتسع نطاقها بعد الرسول ﷺ ولكن ما بلغنا من التراث المكتوب حتى عصر الأمير معاوية كان يتعلق باللغة أو الدين فلما تولّى معاوية عرش الخلافة في دمشق حضره طبيب نصراني يسمّى ابن آثال فأكرمه الخليفة فترجم له ابن آثال العديد من كتب الطب إلى العربية، وهذه إضافة علمية أولى وجدت في اللغة العربية.

ولو أن تراث العرب المكتوب ما زال يتطور يومًا بعد يوم ولكن يصعب علينا الحكم على من سبقهم في جمع هذه الكتب في دار منتظمة ومن هو أولهم، ولو أن مؤرخينا لا يهتمون بأن يفردوا بهذه الأمور عنوانًا خاصًا إلا أنهم يذكرونها ضمن حديث يدلّنا عليها فقد كتب العلامة ابن أبي أصيبعة في طبقات الأطباء عن الحكيم ماسرجويه أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد عثر على ترجمة عربية لماسرجويه في خزانة

[١] توجد هذه التفاصيل كلها في نهاية فتوح البلدان للبلاذري

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكتب فأخرجها منها ونشر نسخها العديدة فيبدو من هذه البيانات والقرائن الأخرى أن تقليد المكتبات قد قام قبل هذا فلعل أول من سنّ هذه الطريقة كان خالد بن يزيد بن معاوية.

خالد: يتعجب ابن خلدون منكرًا وجود هذا الذوق العلمي في بداية العصور الإسلامية فلا يزن أخبار خالد بن يزيد شيئًا ويعتبرها أسطورة ولكن العلامة ابن النديم كتب عنه أن خالد بن يزيد كان يدعى حكيمًا،كان فاضلًا يحبّ العلوم حبًا ملؤه علوّ الهمة فلما خطر بباله الصنعة فجمع فلاسفة اليونان الذين كانوا يسكنون في مصر وكانوا يتكلمون العربية الفصحى، فأمروه بترجمة ما يوجد باليونانية والقبطية من كتب الصنعة إلى اللغة العربية".

يكتب هذا المؤرخ بمناسبة أخرى: "ترجمت لخالد كتب الطب والنجوم والكيمياء إلى العربية"، وكان خالد كاتبًا بنفسه وما تمت صيانته من مؤلفاته حتى عصر ابن النديم والتي رآها بعينيه هي: كتاب الحرارة وكتاب الصحيفة الكبير وكتاب الصحيفة الصغير.

وبعد إثبات هذين الأمرين (قيام المكتبة الملكية قبل زمن عمر بن عبد العزيز في الدولة الأموية وسبق خالد أفراد قبيلته في البحث عن الكتب والرسائل القديمة) يصبح الظن يقينًا أن أول من بنى المكتبة كان خالدًا. ولقد تطوّرت المؤلفات والرسائل كثيرًا بعد خالد فتبعه وجود تراث علمي كبير عن شعر العرب، لغتهم، وأنسابهم، وأيامهم وغزوات المسلمين وسيرهم، والتفسير، والحديث، والفقه، والكلام، وما عداها، فأمر الخليفة المنصور بترجمة المئات من كتب اللغات الأخرى إلى العربية حتى بنى هارون الرشيد مكتبة علمية ضخمة سمّيت فيما بعد بـ"بيت الحكمة".

بيت الحكمة: كان بيت الحكمة منقسمًا إلى جزئين؛ جزء كان يختص بالمكتبة وأما الجزء الآخر فكان يختص بترجمة الكتب غير العربية فقد كانت هذه المكتبة تحتوي على عدد لا يحصى من كتب ورسائل الهندية والفارسية واليونانية والقبطية والكلدية بجانب كتب العربية فبعث يحيى بن خالد البرمكي الذي كان وزير هارون الرشيد ومحرّك الخلافة العباسية بالسفراء إلى الهند ودعا كبار براهمها وحكمائها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

إلى البلاط، وهؤلاء هم الحكماء الهنود الذين قد وصل بفضلهم تراث الهند الكبير إلى بغداد وكذا تم توفير المؤلفات الفارسية بكثرة كاثرة لأن البرامكة كانوا من أصل فارسي وكانوا يحبون لغتهم وتراثهم العلمي حبًا جمًا، وعلى هذا فكان مسؤول المكتبة من أفراد فارس ولقد لعب هارون الرشيد دورًا كبيرًا في تخزين الكتب والرسائل بدون عصبية يدلّ عليها توظيفه علان الشعوبي على منصب الترجمة والنسخ في بيت الحكمة، والحال أن هذا الرجل كان ينشغل بهجو العرب ليل نهار ولقد ألّف كتابًا على حدة خاصًا بمساوئ كل قبيلة عربية.

مأمون الرشيد: ولقد طوّر مأمون الرشيد هذه المكتبة تطويرًا هائلًا وجعل العديد من علماء فارس مسؤوليها ومنهم سهل بن هارون وسعيد بن هارون كانا شعوبيين،[1] كانا ينظران إلى العرب بنظر التحقير، وكانا يكشفان عن معايبهم، ولا نزعم من هذا أن المأمون لم يكن يعتني بحماية وطنيته بل المشكلة كانت في أن هؤلاء الشعوبيين كانوا هم العارفين بتراث فارس العلمي الكثير فلم يكن مفرّ من توظيفهم واختيار أفاضلهم.

وفوق ذلك كان المأمون يرتبط بفارس بعلاقة خاصة وذلك لأن أمه كانت فارسية كما كان الفضل بن نوبخت وزيره ومقيم حكومته فارسيًا وكان معظم حاشيته من أصل فارسي، وحينما سكن مرو في بداية خلافته غلبه أثر فارس إلى حد أنه كان يدرس كتب الفارسية وكان يقلّد أهاليها في الملابس والنظم والأخيلة، حتى قرّر اتباع أردشير في نظم دولته فلا نتعجب من أنه التفت إلى كتب الفارسية أكثر من كتب اللغات الأخرى ولكنه مع ذلك كان مولعًا بجمع كتب اللغات الأخرى، فما قام به من محاولات مدهشة لجمع وتعريب كتب اليونانية قد فصّلناها في مقالتنا "گذشته تعليم" (التعليم الماضي) وكتابنا "المأمون".

[1] الشعوبية فرقة عجمية تحقّر العرب وتذمهم ويعتبر الكشف عن مساوئهم فريضة عليها

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد وفّر في هذه المكتبة تراثًا ملموسًا لعرب الجاهلية من قصائدهم ومنظوماتهم ورسائلهم ووثائقهم واتفاقياتهم حسبما بلغته، ولقد اشتملت هذه المكتبة على وثيقة دَيْنٍ كتبها عبد المطلب على الجلد وهي كما يلي:

"حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعاء، عليه ألف درهم فضة كيلًا بالحديدة ومتى دعاه بها أجابه شهد الله والملكان"[1].

وكان ابن أبي الحرش المجلّد الشهير موظفًا على خدمة التجليد في المكتبة، ولنقدّر سعة مكتبة المأمون وكثرة عدد كتبها أنه ولو أن بغداد عانت أنواعًا من التدمير وتم تخريب تراثها العلمي لكن كتبها التي نجت من هذه العملية الظالمة كانت موجودة حتى القرن السابع الهجري، والتي قد وجدها العلامة ابن أبي أصيبعة، و ذكرها العلامة حين ذكر حياة حنين بن إسحاق وقال: إن هذه كانت موقعًا عليها من قبل حنين وقد وضعت عليها طغرة لمأمون.

ومنذ عصر المأمون عمّ بغداد الرغبة في جمع الكتب والرسائل فكان معظم الوزراء والأمراء وحتى عامة العلماء كانوا يملكون مكتبات ضخمة، وكانوا يصرفون الأموال الهائلة في جمع الكتب، أسس الفتح بن خاقان وزير المتوكل بالله مكتبة عظيمة جعل مسؤولها علي بن يحيى المنجم، لم يكن لها مثيل في ذلك العصر، وكذا كان محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزير الخليفة الواثق بالله ينفق عشرة آلاف روبية على نسخ الكتب وترجمتها شهريًا، وقد قال ابن النديم في كتاب الفهرست: لما توفي العلامة الواقدي ترك ستمائة قمطر كتاب وكان كل قمطر يحمله رجلان، والحال أنه قد باع جزءًا من مكتبته بألفي جنيه قبل موته.

لم تزل هذه الرغبة تنمو وتتطور حتى عمّ تقليد وضع المكتبات كافة الدول الإسلامية، حتى القرن الرابع الهجري فنقوم فيما يلي بشيء من التفصيل لأبرز مكتبات هذا العصر:

---

[1] كتاب الفهرست، ص ٨

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الحكم: ولعل أكبر مكتبة في هذا العصر كانت تلك التي أسست في أسبانيا بيدي الحكم المستنصر، فما قدّمه المؤرخ ابن خلدون وصاحب نفح الطيب من أخبار هذه المكتبة تثير العجب، فكان الحكم أشهر خلفاء بني أمية (الذين كانوا يحكمون أسبانيا). كانت حكومته واسعة النطاق، وكان عالمًا منطلق الفكر، يشتاق إلى جمع الكتب إلى حدّ أنه لم يكفه خراج الدولة، فكان المئات من عملائه وتجّاره يعملون له في أسبانيا والشام ومصر وبغداد وفارس وخراسان لكي يوفّروا له الكتب النادرة والقيّمة، فلما أتمّ أبو الفرج الأصفهاني كتابه "الأغاني" بعث إليه يطلبه هذا الكتاب قبل انتشاره في العالم، فتم شراء هذا الكتاب بأربعة آلاف روبية واحتفظ به في مكتبة الحكم قبل غيرها من المكتبات وكذا وُفِّرَ له كتابُ القاضي أبي بكر الأبهري. يروى أن هذه المكتبة كانت تحتوي على أربعمائة ألف كتاب ولقد صرّح المؤرخ ابن خلدون وابن الآبار: إن فهرس مجموعات القصائد والأشعار الذي تم وضعه كان في ٨٨٠ صفحة.

وبجانب جمع الكتب التادرة كان الحكم مغرمًا بتصحيحها وتزيينها فوظّف لهذا الغرض أبرز نسّاخ ومجلّدي العصر على رواتب جيدة، ولو أن هذه المكتبة كانت باهرة في ذاتها ولكن سعة أفق مؤسسها أبهر من ذلك فقد ذكر المؤرخون أنه قرأ معظم كتبها وعلّق عليها بما يفيد القرّاء و كان يذكر في بدايته اسم كل كاتب ونسبه وولادته ووفاته، وكان يكتب فيه نكتًا وفوائد عجيبة لا توجد عند غيره. توفّي الحكم في ٣٣٦هـ.

والجزء الثاني للعالم الإسلامي الذي كان يحكمه العباسيّون قد عمتّه الفوضى لضعف سيطرة بني العباس فثار في كل منطقة حاكم مستقل بالحكم، ففي بخارا كانت تحكم الأسرة السامانية وفي جرجان كان يحكم قابوس بن شمكير، كما كان يحكم الشام بنو حمدان وكانت شيراز تحت سيطرة آل بويه، وأما مصر فكان يحكمها الفاطميون، ولكن من أعجب الصدف أن هؤلاء الحكام كلهم كانوا أصحاب علم وفن وكانوا يكرمون العلماء والحكماء، فكل منهم أسّس مكتبة كبيرة جمعوا فيها كتبًا لا تحصى ولا تعدّ.

نوح: كان نوح بن المنصور حاكمًا كبيرا في بخارا، وأقام مكتبة لا مثيل لها من وجوه عديدة، فقد قال العلامة ابن خلكان:" كانت هذه المكتبة الفاقدة التي لا مثيل لها تحتوي على كتب ورسائل من كل نوع

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بما فيها ما لا توجد في مكتبة غير هذه". ولقد ذكر ابن سينا أنه لم يجد الكتب التي رآها في هذه المكتبة في أي مكان آخر، ويعتقد أن الآخرين أيضًا لم يروها. ولقد وصف ابن سينا هذه المكتبة بأنها دار واسعة ذات حجرات عديدة وفي كل حجرة صناديق متعددة احتفظت فيها الكتب_مرتبة، ولكل فن حجرة خاصة[1].

عضد الدولة: كانت دولة عضد الدولة واسعة النطاق وكان يسيطر على الدول التي لم يسيطر على مثلها حاكم إسلامي غيره، فكان يحكم من فارس حتى الموصل والجزيرة وكانت الخطبة تلقى باسمه في بغداد ذاتها. وبجانب قوته كان شاعرًا كبيرًا وكان بارعًا في العلوم والفنون، أقام مكتبة فخمة في شيراز التزم فيها بجمع الكتب مما ألّفت منذ فجر الإسلام إلى عصره، ومن المؤسف للغاية أنه لم يصفها غير العلامة البشاري الذي قام بهذا الوصف لأن المكتبة جزء من ذلك المبنى الفخم الذي لم ير مثيله في العالم الإسلامي كله، وكان يعتبره نموذجًا من الجنة، فقد كتب العلامة البشاري حينما ذكر قصر الملك بأن هذا القصر يحتوي على مكتبة فخمة، وصفتها بأنها دار واسعة ذات حجرات عديدة وفي كل حجرة رفوف متعددة ملتصقة بالجدران. وهذه الرفوف عرضها ثلاثة أذرع وطولها بقدر طول الإنسان، وخشبها منقوش ومذهّب ولكل فن حجرة خاصة كما له فهرس خاص، وقد وظّف وكيل وأمين المال ومحاسب لرعاية المكتبة ولا يسمح بدخولها إلا للأشراف".

سيف الدولة: كان سيف الدولة ربّ السيف والقلم معًا، وكان يحبّ العلم حتى قال الإمام الثعلبي إن بلاطه حضره من الشعراء والفنّانين ما لم يجمعوا في العصور الإسلامية سوى العصر العباسي، فكان الحكيم أبو النصر االفارابي من حاشيته. وكان سيف الدولة يميل إلى الأدب ميلًا شديدًا فجمع في مكتبته كتب هذا النوع خاصة، فما وجد من التراث الأدبي في مكتبته لم يوجد في مكان آخر.

كان محمد بن هاشم وأخوه مشهورين في الشعر وكانا مسؤولين عن هذه المكتبة.

---

[1] ابن خاكان (ترجمة الشيخ بو علي سيناء)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو أن هذه المكتبات كانت كمثل دار العلوم الكبرى إلا أن مكتبة الفاطميين في مصر كانت ترأسها، وكانت تنافس مكتبة أسبانيا الشهيرة، والتي ذكر المقريزي تفاصيلها في كتاب الخطط والآثار.

كانت هذه المكتبة جزءًا من قصر الخلافة وكانت تشتمل على أربعين مكتبة على حدة، بينما كانت كل مكتبة منها تحتوي على ١٨ ألف كتاب للعلوم القديمة، وقد ادعى بعض المؤرخين أنه لم تكن هناك مكتبة تضاهيها في العالم الإسلامي وأما مجموع كتب هذه المكتبة فقد اختلفت أقوال المؤرخين فيه؛ عدّها ابن الطوير مائتي ألف كتاب، كما أحصاها ابن أبي الواصل مائة وثلاثين ألف كتاب، وعدّ ابن أبي الطي ستمائة ألف وألف كتاب، ولعل الاختلاف وقع لعدّ كافة نسخ الكتاب كتابًا مستقلًا وذلك لأن هذه المكتبة كانت تحتوي على نسخ مختلفة لكتاب واحد، كما كانت كل نسخة منها لها ميزة خاصة، فذات مرة ذكر كتاب العين عند الخليفة العزيز بالله، فأمر مسؤول المكتبة بتقديم نسخ هذا الكتاب، فوجدت ثلاثون نسخة بما فيها ما كانت نسخت بيد كاتبه (الخليل بن أحمد البصري).

وكانت أغلب الكتب منقوشة أو مذهبة أو مزيّنة وقد اعتني بتذكارات الماضي بأن جمعت قشور مبرية من أقلام الناسخين المشهورين مثل ابن مقلة وابن البواب، جمعت في الصناديق ووضعت فيها بكل حذر، والكرة التي صنعها بطليموس والتي قد مضى عليها ٢٢٥٠ سنة احتفظت في هذه المكتبة[١]، كما كانت فيها كرة صنعها أبو الحسن الصوفي لعضد الدولة وقد تم شراؤها بخمسة آلاف روبية.

ولم تكن الرغبة في إقامة المكتبات وتأسيسها مقصورة على الخلفاء والوزراء بل كان معظم علماء هذا العصر ومسؤولوه يعتبرون المكتبات فخرًا لهم، فقد صرف أبو النصر سهل بن مرزبان الذي كان أميرًا

[١] توجد في القصر الملكي لأسبانيا كتب باقية من العصر الإسلامي، وقد مضت مائة سنة إذ وضع البروفيسور كاسيري فهرسًا لها باللاتينية. هذا الفهرس في مجلدين وقد ذكرت فيه جمل الكتاب الأصلية بجانب أسمائها، وقد ذكرنا كرة بطليموس بكتاب مذكور في هذا الفهرس.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

شهيرًا من نيشابور كافة أمواله في جمع الكتب وأكثر من الترحال إلى بغداد للبحث عن الكتب وجمع ما ندر منها[1].

لما طلب نوح بن المنصور الصاحب بن عباد إلى بخارا ليمنحه الوزارة، اعتذر إليه قائلًا: يصعب لي أن أسافر بأمتعتي وحاجياتي فلمجرد حمل الكتب أحتاج إلى أربعمائة بعير"[2].

والمكتبة التي أقامها محمد بن الحسين البغدادي في هذا العصر تعتبر بديعة لأجل كتبها النادرة والقليل وجودها، ولقد اعترف العلامة ابن النديم البغدادي بالرغم من سعة أفقه:" لم أر مكتبة تضاهيها في أي مكان"، لا نعثر على أخبار لهذه المكتبة، فإضافة إلى عدم عناية المؤرخين بها يرجع السبب في ذلك إلى أن بانيها محمد بن الحسن ذاته أحبّ أن يخفي أخبارها فلم يذكرها لأحد لندرة كتبها وقلة وجودها. كتب العلامة ابن النديم: وصلت إلى محمد بن الحسين بصعوبة بالغة ولما اطمأن، أخرج ذات يوم كيسًا كبيرًا يحتوي على قصائد الأقدمين من العرب ووثائقهم وكتاباتهم، وكانت هذه الوثائق على الجلد والأوراق الخراسانية والمصرية والصينية والتهامية فقلبتها وقد ساء حالها لقدمها، كما محيت الحروف من مواضع مختلفة، فالمجموعات والوثائق التي كان يحتويها هذا الكيس الكبير قد وقّع عليها العلماء وكان يشملها مصحفٌ نسخه خالد بن أبي الهياج الذي كان يرافق عليًا كرّم الله وجهه، كما كانت فيها كتابات للحسن والحسين وكذا وجدت فيها رسائل النبي ﷺ كما هي، والتي أرسلها النبي ﷺ إلى السلاطين ورؤساء القبائل، وكتب الأصمعي وابن الأعرابي وسيبويه والفراء والكسائي في النحو واللغة، وكذلك وجدت فيها كتب سفيان بن عيينة والثوري والأوزاعي في الحديث النبوي الشريف[3].

---

[1] يتيمة الدهر (ذكر سهل بن مرزبان)

[2] المصدر نفسه (الصاحب بن عباد)

[3] كتاب الفهرست، ص ٤١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يقول العلامة ابن النديم أنه عرف، بفضل هذه المكتبة، أن مؤسس النحو هو أبو الأسود الدؤلي، فقد رأى رسالة في أربع أوراق الصينية والتي ابتدأت بما يلي: "فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود الدؤلي بخط يحيى بن يعمر"، وقد وقّع عليها بعض علماء النحو القدامى.

والمكتبة التي أقامها أبو جعفر أحمد بن عباس كانت تحتوي على أربعمائة ألف كتاب مجلّد[1].

وما كان يحمله المسلمون من الرغبة في البحث عن الكتب القديمة والعناية بها لجدير بالاعتراف، فقد اعتاد الناس منذ القدم وخاصة لما تطوّرت العلوم والفنون في فارس قبل الإسلام، أن يصونوا الكتب بحيث تبقى لمدة طويلة فأمر بكتابتها على التوز وكان أقوى القشور، وعندما تجمّعت لديهم ثروة هائلة منها أقاموا مكتبة ضخمة في كهندژ في أصفهان وجمعوها فيها، فكان أنسب موضع في فارس بسبب اعتدال الجو، ولو أن تلك المكتبة قد ذهب بها الدهر حتى وصول الإسلام إليها، لبث الراغبون فيها وخاصة مسؤولي أصفهان يبحثون عنها لشهرتها فيهم، فعثروا على شيء منها في أوقات مختلفة، فقد قال أبو معشر الفلكي:" قبل أيامنا بكثير قد انهدم جزء من هذا المبنى فانشكف منها كتب قديمة للغاية وكانت بالفارسية القديمة فقرأها من كان يعرفها" وقال ابن النديم:" وقد وجدت مؤلفات كثيرة أخرى في جانب آخر من المبنى في ٣٥٠هـ، ولكن لم يستطع أحدٌ قراءتها". ثم قال ابن النديم:" ما رأته عيناي هو أن ابن العميد أرسل الكثير من الكتب إلى بغداد في ٣٤٠هـ تم اكتشافها من ثغور أصفهان موضوعة في صناديق. كانت هذه الكتب باليونانية وبما أنها كتبت على الجلد فقد تعفنت فتم تشميسها، لمدة ثم عادت إلى ما يرام فقرأها يوحنا وغيره ممن كان يعرف اليونانية وأخبرنا بما كانت تشتمل عليه"[2].

ولقد فاقت أسبانيا في إقامة المكتبات على فارس والعراق والشام فقد راج في قرطبة أن كل أمير كان يقيم مكتبة خاصة له، وكان يبذل قصارى جهده لكي تجمع في مكتبته كتب نادرة لا توجد في غير مكتبته، وكانت هذه الطريقة تعتبر جزءًا لا ينفك من الإمارة وكانوا يتنافسون ويتفاخرون بها، وقد

[1] نفح الطيب (طبعة مصر)، ٣٠٨/٢
[2] كتاب الفهرست، ص ٢٤١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

انتشرت هذه الطريقة إلى حد أن الأمراء غير المثقفين أجبروا على اتباعها لكي ينالوا المكانة والسمعة، فقد نقل اليعقوبي قصة في تاريخ أسبانيا:

"كان في ذلك الزمان عالم يسمّى "الحضرمي" الذي كان يبحث عن كتاب منذ مدة مديدة، واتفق أنه كان يباع بالمزاد العلني ذات يوم فأحبّ الحضرمي أن يشتريه، ولكن كان هناك رجل يزيد في ثمنه حتى بلغ ثمن الكتاب أضعافًا مضاعفة، فسأله الحضرمي هل أنت أعرف بأهمية هذا الكتابن فردّ عليه الرجل: لا، لست بعالم به إلا أنه لا يوجد في مكتبتي فوددت أن أشتريه كيفما أمكن ومهما بلغ ثمنه".

وقد بلغ تقدير الكتب في تلك الأزمنة حتى أن أبا علي القالي (ت ٣٧٩هـ) كان يمتلك نسخة لجمهرة (أشعار) العرب كتبها الكاتب بيده والتي كان ثمنها ثلاثمائة مثقال ذهبًا ولكنه لم يحبّ أن يبعدها عن نفسه.

أول مكتبة عامة: ولو أن الكثير من المكتبات قد أقيمت في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي ولكننا لا نجد أثرًا لمكتبة عامة في القرن الثالث الهجري بل حتى في بداية القرن الرابع الهجري، فالمكتبات التي مضى ذكرها آنفًا كانت مكتبات شخصية فلعل أول من سنّ هذه الطريقة الجميلة كان سابور بن أردشير الذي بنى دارًا للعلم ببغداد في ٣٨٢هـ وأوقف لها العديد من الكتب لقراءة العامة، ثم في ٣٩٥هـ أقام الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر مكتبة ضخمة عامة.

دار العلم في مصر: هذه المكتبة التي ذكرها المؤرخون دائمًا بدار العلم قد أقيمت بكل شأن وأبهة، وحضر تدشينها العديد من القرّاء والمنجمين والأطباء ورأوا كتبها، وكان المبنى قد زيّن بكل أثاث كما أسدلت الستائر الثمينة على كل مدخل وباب، وقد نودي بالسماح العام بقراءة الكتب ونسخها وكتابتها، ولذا وفّرت أسباب الدراسة والنسخ من قبل المكتبة، كما قرّرت رواتب للعديد من الفقهاء والأطباء والمنطقيين والرياضيين لكي يتواجدوا فيها دائمًا ويطوّروا ثقافتهم، فذات مرة طلب الحاكم بأمر الله

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الناسَ في ٤٠٣هـ للمناظرة وبعد قضاء وقت طويل معهم أنعم على كل منهم بالكسوة والعطايا، وفي ٤٠٠هـ أوقفت لها بيوت ودكاكين لتحمل نفقاتها.

رواج المكتبات العامة: منذ ذلك العهد عمّ تقليد المكتبات العامة وأقيمت في كل إقليم إسلامي المئات بل الآلاف من المكتبات العامة، ومن أسباب كثرة المكتبات أن المدارس والجامعات قد أقيمت بالتزامن معها، وأصبح ضروريًا أن تلحق بها مكتبة، فنظام الملك الذي بنى "نظامية بغداد" نادى بأن تقام مدرسة ومكتبة لكل عالم بارز في أي مكان من أماكن الدول الإسلامية"[1]، فأقيمت الآلاف من المدارس والمكتبات في زمنه وقد راجت هذه الطريقة كل البلاد الإسلامية. وبجانب المدارس جعلت المساجد تستخدم لهذا الغرض وأثر ذلك إلى الآن أن كل مسجد في القسطنطينية تلحق بها مكتبة.

الرد على السؤال الأول: وبعد ذكر تاريخ المكتبات الموجز لنرجع إلى الرد على الأسئلة التي أثرناها في بداية المقال فأهمها: كيف عامل المسلمون معالم الأمم الأجنبية؟ فالبروفيسور زخاؤ العالم ألماني في عصرنا والذي كتب مقدمة قيّمة لكتاب الهند للبيروني يقول فيها:" لم يعتن المسلمون بما مضى فما يقولونه عن المؤرخين القدامى يكون قريبا للأسطورة".

هذا البروفيسور له مهارة تامة في العربية، ومعلوماته عن المسلمين ليست قليلة فلا نعتقد أنه ينكر عناية المسلمين بعلوم وكتب اليونان فلعل اعتراضه هذا موجّه إلى الهند وفارس وبابل.

تاريخ فارس العلمي: وللرد على هذا السؤال يجب علينا أن نذكر تاريخ فارس العلمي، بإيجاز فما يبدو من الرسائل العلمية المعاصرة أن فارس قد تطوّر فيها العلوم والفنون وبرز فيها أسباب المدنية منذ عصر جمشيد، في هذا العصر ألّفت كتب الهيئة والهندسة والجغرافيا، ولو أن الضحاك دمر سلطنة جمشيد ولكنه لم يمسّ التراث العلمي بضرر بل أسّس مدينة جديدة باسم "مشتري" جعل فيها اثني عشر قصرًا حسب عدد الأبراج وجمع فيها الكتب العلمية، ولو أنها عانت ثورات وتغييرات خطيرة منذ

[1] بدة النصرة تاريخ آل سلجوق (طبعة أوربا)، ص ٥٧

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ذلك إلى عصر الإسكندر والتي بدورها أوجبت دمار هذا التراث العلمي، ولكنه بما أن المدنية والحضارة قد لزم رقيّهما فكان يقوم تراث علمي مقام التراث العلمي الفاني، حتى جاء عصر الإسكندر اليوناني ولو أن مآثر هذا الملك العجيبة قد كفّرت مساوئه، ولكنه لا يخفى على المؤرخين أنه دمّر جل التراث العلمي الفارسي وأشعل النار في كتبها، وكسر اللوحات الحجرية التي نقشت عليها التواريخ والأيام الشهيرة إلا أنه منّ عليها بأن أمر بترجمة ما استطاع من كتب الفارسية إلى اليونانية، وأرسلها إلى الإسكندرية، وبعد الإسكندر عمّت الفوضى في فارس لمدة طويلة ولم تكن هناك عناية بالعلوم والفنون حتى بدأ عصر الساسانيين فقام أردشير بابك بإنهاء الفوضى وبإقامة سلطنة كبرى، ثم أحيى العلوم والفنون وأمر بجمع التراث العلمي من الهند والروم والصين وتبعه ولده سابور ثم أنو شيروان ممن طوّر العلوم والفنون أفضل تطوير.

سيبدو من هذه الأخبار أنه لما دخل الإسلام أرض فارس كلما وجده من التراث العلمي كان تراث الملوك الساسانيين وندعي بأن المسلمين حاولوا جهدهم في صيانته بكل حيطة.

ولسنا المسؤولين لو تدمّر تراث بنفسه في بدء الفتح وأثناء فوضى زوال الحكومة ويمكن حدوث هذا فعلًا، ولنلاحظ هنا أنه في العصر (بدء الخلافة العباسية) الذي لم يعبأ المسلمون بتدوين علومهم وفنونهم كيف نرجو منهم فيه أن يعتنوا بلغة وعلوم غيرهم، فقد توجّه المسلمون بصورة منتظمة إلى الأعمال العلمية في عصر الخليفة المنصور وهذه هي الفترة التي ألّفت فيها الكتب عن الحديث والفقه والتفسير ، فهل نستدل على أفضال المسلمين العلمية بأكثر من أنهم كانوا يجهدون أنفسهم في جمع وترجمة خدمات الشعوب الأخرى العلمية في حين كانوا يرغبون في صيانة وتدوين علومهم الدينية.

فمن جهة دعا الخليفة المنصور الإمام مالكًا وأمره بجمع الأحاديث وتأليف كتاب مستقل به ومن جهة أخرى أمر بترجمة "سليكين" وهو أهم تاريخ وأقدمه وأكثره تفصيلًا لفارس وأهاليها، وهو مهمّ عندهم كما يهتمّ الهندوس بـ"مهابهاراتا".

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مترجمو الكتب الفارسية: مرّت في المسلمين جماعة اشتغلت بترجمة الكتب الفارسية فحسب، وقد ذكر العلامة ابن النديم أبرزهم وهم الفضل بن نوبخت، وعبد الله بن المقفع، وموسى بن خالد، ويوسف بن خالد، وعلي بن زياد، والحسن بن سهل، وأحمد بن يحيى البلاذري وجبلة بن سالم، وإسحاق بن يزيد، ومحمد بن الجهم البرمكي، وهشام بن القاسم، وموسى بن عيسى الكروي، وزادويه الأصفهاني، ومحمد بن بهرام، وبهرام بن مروان شاه، وعمر بن الفرخان.

ولم يبق فن من فنون فارس إلا وقد جمعت كتبه فترجمت إلى العربية.

كتب علم التاريخ الفارسي: فمن هذه الكتب والتي تمت ترجمتها إلى العربية هي رستم وأسفنديار نامه، وبهرام نامه وشهزاد باپرويز وكارنامه نوشيروان، وتاج نامه، ودارا وبت زرين، وخداىٔ نامه، وبهرام ونرسي ونامه نوشيروان وسبكتگين.

كتب علم الأخلاق: وهي زاد وفرخ، وكتاب موبد موبدان، والحكم والآداب، ومجموعه أردشير نامه، وبداهو دين فرخ زاد.

كتب فن الحرب: وهي چوگان وگويء، وكتاب بهرام گور في فن الرماية، وكتاب مفصّل عن حيل فتح الحصون، وقواعد جنگ وهذا الكتاب تم تأليفه في عهد أردشير و كان يحتوي على قوانين التجسس والمراقبة والهجوم.

وكذلك تمت ترجمة الكتب في الطب والبيطرة والفلسفة والمنطق وغيرها من العلوم.

أوامر وتوقيعات ملوك فارس: وبجانب الكتب تم توفير رسائل ملوك فارس وأوامرهم وتوقيعاتهم ثم ترجمت إلى العربية، فقد فصّل كتاب الفهرست ذكر رسائل وأوامر أنو شيروان وهرمز بن أنوشيروان وأردشير بن موبد موبدان وبزرجمهر.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الرويات والقصص الفارسية: ولو أن المسلمين لم يكونوا مولعين بالروايات والقصص ولكنهم لم يرغبوا عنها، فالكتب التي ترجمت منها هي هزار داستان ويوسفاس وچند خسروا ومرمين وأفسانه وروزبه وشغال وخرس وسگ زمانه وشاه زمان ونمرود نامه.

ألف ليلة رواية فارسية أصلًا: ألف ليلة التي لم تعجب الناس رواية أكثر منها، والتي ترجمت إلى كافة لغات أوربا هي ترجمة رواية فارسية تسمّى "هزار أفسانه" وقد ألّفت لهما بنت بهمن[1]، وهذه من أقصى أمانة المسلمين أنهم لم يغيّروا اسم الرواية وقاموا بترجمة العنوان القديم أي ألف ليلة، إلا أنهم أضافوا إليها كلمة "ليلة" فسمّوها بـ"ألف ليلة وليلة" لأنهم أضافوا إليها بعض القصص كما زادوها أسلوبًا عربيًا.

كتب مؤسسي الديانات الفارسية: وجدت كافة كتب مؤسسي الديانات الفارسية جنبًا إلى جنب الكتب الدينية الإسلامية مع أن معظمها كانت تخالف عقائد الإسلام، ولكنها ترجمت لكي يتم تحقيقها فماني الذي ادّعى النبوة في زمن سابور بن أردشير ترجمت كتبه السبعة إلى العربية بجانب ٧٦ رسالة له ولأتباعه ترجمت إلى العربية أيضًا.

كتب السنسكريتية: لم يتخلفوا في عنايتهم بعلوم الهند وفنونها فقد بدأ علماء الهند يجتمعون في بلاط بغداد منذ عصر الخليفة المنصور حتى جعلت أسرة البرامكة طبيبًا هندوسيًا مسؤولًا لبيمارستانها، فبفضل هؤلاء العلماء وثم بفضل العلماء المسلمين الذين سافروا إلى الهند لجمع إنتاجاتها العلمية جمعت معظم كتب السنسكريتية الرائعة في مكتبات بغداد كما ترجمت كتب علمائها من پاكهر ورابه وسكهه وداهر وأمكر ورنگل وجهر وآمدي وجاري ومانك وسالي ونوكسل وروسا وراي وكپل وبراهمر.

كتب السنسكريتية هذه كانت متعلقة بالنجوم والطب والبيطرة وفن الحرب والأخلاق والفلسفة والدين والرواية والمسرحية، ونقدر على تسميتها وذكر عنوانها إلا أن هذه المقالة الموجزة لا يعنيها هذا التفصيل.

---

[1] راجع لألف ليلة: كتاب الفهرست، ص ٣٠٤ ومروج الذهب للمسعودي (ذكر هياكل قديمة)

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فقول بعض كتّاب أوربا بعد العثور على هذه الأخبار بـ"أن المسلمين لم يعتنوا بتراث الأجانب" ثبت باطلا إلا أن أحدًا يمكن أن يعترض على أنه لو صحّت هذه الأخبار فلِمَ لا نعثر على تلك الكتب المترجمة؟ فالرد على هذا السؤال تتبعه قصة ملؤها المأساة.

أسباب دمار المكتبات: السبب الكبير في دمار المكتبات هو انقسام الحكومة الإسلامية إلى دول ودويلات ووجود الجديدة منها وزوال القديمة، فالدول التي برزت إثر ضعف الدولة العباسية قد أنتجت تراثًا علميًا هائلًا ولكنها و لما آلت إلى الزوال دفنت معها منتجاتها.

دمار مكتبة مصر: لقد دُمِّرتْ المكتبة المشهورة في مصر إثر دمار الدولة الفاطمية، و مما يؤسفنا أن صلاح الدين فاتح بيت المقدس الذي قضى على الفاطميين وقام مقامهم يحكم مصر لم يمنع الناس عن تدميرها، فقد ضاع العديد من كتبها لعدم العناية بها وما بقي منها لم تزل تباع على يدي سمسار يسمّى ابن صورة بثمن بخس، ونستثني منهم القاضي عبد الرحيم وزير صلاح الدين، الذي حاول جهده لصيانة الكتب قدر المستطاع، فالمدرسة التي أقامها في القاهرة أوقف لها حوالي مائة ألف كتاب والتي كان معظمها بل كلها مما كانت تمتلكها هذه المكتبة المدمّرة.

تدمير التتار للمكتبات: ولو أن هذه الحملات قد نجا منها قدر ملموس من التراث العلمي ولكن فتنة التتار قد ذهبت بكل منها تقريبًا، ولقد بالغ بعض مؤرخي بغداد أنه لما دمّر التتار مكتبات بغداد وقاموا بإلقاء كتبها في دجلة تحوّلت مياهها إلى السواد، ولكن لا نشك في أن هذه الفتنة قد أبادت عددًا كبيرًا من الكتب.

لم يقتصر سيل التتار على بغداد بل مرّ بتركستان وماوراء النهر وخراسان وبلاد الجبل وفارس والعراق والجزيرة والشام مدمّرًا تراثَها العلمي.

مرصد هولاكو خان: كتب المؤرخ كتبي في ترجمة المحقق الطوسي أن المرصد الذي بناه هولاكو خان بمراغة بإشارة من المحقق الطوسي، كان يحوي مكتبة وضع فيها ما سُلِبَ من كتب بغداد والشام

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والجزيرة وكان عددها يتجاوز أربعمائة ألف كتاب" فإن كان هذا عدد الكتب المتبقية فماذا يكون عدد الكتب التي تم تدميرها.

كانت هذه حالة الدول الإسلامية ولقد بقيت ثروة علمية ملموسة في أسبانيا بالرغم من الإطاحة بالحكومة، ولكن الثروة امتلكها النصارى الذين نالوا من الشهرة في تدميرها ما لم ينلها قوم غيرهم، فيعترف مؤرخو أوربا علنًا ويثبت من حديثهم أن هذه الثورة ذهبت بملايين من الكتب بل دُمِّرَتْ عمدًا.

ضياع الكتب القديمة: ولو أنه وجدت مكتبات كبرى في مصر والقسطنطنية على الرغم من هذه الثورات وسأكتب عنها بالتفصيل في أحوال رحلتي ولكن وللأسف الشديد فإن كتب القدامى التي يمكن بها تحقيق أصول الفن لا يوجد أغلبها فما نجده هو من إنتاجات الزمن الأخير أو كتب العصر الماضي التي تعتبر عادية. و المعروف أن الكتب التي توافق وذوق العامة تنال رواجًا أكثر وقبولًا وبالتالي تنتشر في كافة البلدان و لا تتأثر أبدا بزوال حكومة أو مدينة، لأن لها نسخًا عديدة توجد في كل مكان ولا يمكن إزالتها .

ولو أن المسلمين برعوا في الفلسفة والعلوم القديمة ولكن تعليمها لم يكن رائجًا بل كان مقصورًا في نطاق خاص حتى أن الفلسفة لم تكن معروفة فيما بين الناس في أسبانيا في زمن كانت فيه على ذروة تطورها، فلم تكن توجد نسخ الكتب الفلسفية بالكثرة مما أسفر فعلًا عن اختفائها حينما آلت دور العلم الكبيرة إلى الزوال، ولذا ضاعت ترجمات كتب الشعوب الأخرى أيضا. وليس هذا خاصًا بالفلسفة والعلوم القديمة بل كتب العلوم الإسلامية التي لم تكن توافق وذوق العامة والتي لم تنل القبول العام لدقة محتواها ضاعت أغلبها، والحقيقة أن هذه الكتب هي التي كانت أمهات العلم والفن ولقد رأيت العديد من الكتب في القسطنطنية ومصر والتي تعتبر مما مفخرة للمسلمين والتي لا توجدلها إلا نسخة أو نسختان في العالم فإن ضاعت هذه النسخ (لا قدر الله) لبادت أسماؤها من العالم للأبد وسألتُ أغلب أهالي القسطنطنية:" لم لا تطبعونها ليعمّ نفعها الناس" فردّوا عليّ أنها لا أحد يطلبها في السوق.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ونفس الحال هو مع الكتب الجيدة النادرة في الهند، ليت الله يوفّق قومي لإقامة مؤسسة مثل أوربا لنشرها وتعميم نفعها للناس حتى لا يضيع ما بقي من هذه الثروة الغالية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي

تقدّر الأمم الآسيوية عروج دولة أو انحطاطها بفتوحاتها وقوتها العسكرية ولعل أوربا كانت تؤمن بهذا الميزان قبل اليوم بقرنين، ولذا نرى أن كتب تلك الفترة تعتني بأحداث الفتح ووقائع النزاع المحلي أكثر من عنايتها بأمور أخرى لدولة أو حكومة ولا نبرّئ التواريخ الإسلامية من هذا النقص وعلى هذا فقد سمّت أوربا اليوم تواريخ الإسلام بالمذبحة أو دكان الجزار (Butcher's Shop). ونتأسف على أسلوب الكتابة هذا أكثر من طعن أوروبا، فقد أخفى هذا الأسلوب كثيرًا من مآثر المسلمين ومحامدهم عن عيون الناس، فنؤمن في ضوء دلائل قوية للغاية أن الحكم الإسلامي كان نموذجًا للحكم الحضاري، فقد أقاموا أقسامًا خاصة لكل إدارة فعيّنوا وزيرًا لكل قسم أو سكرتيرًا وكانوا يمسحون الأراضي بعد كل ثلاثين سنة وكانوا يقومون بإصلاح أو تبديل في قسم الخراج طبقًا لنموّ الأرض وصلاحها للزراعة، وقد أفردوا قسمًا للأشغال العامة التي كانت تحتوي على ترميم الشوارع والمعابر وتنظيف المدن والرعاية الصحية وما شابهها من الأمور. وبالجملة فالحكم الإسلامي كان يتصف بكل ما يقتضيه الحكم الحضاري، ولكننا اليوم عاجزون عن توفير التفاصيل لكل ذلك، وعجزنا هذا هو الذي يجرّنا إلى أن نوجّه الشكوى إلى تواريخنا القديمة.

وعلى كل حال فيناسبنا أن نضع موضوعات مختلفة لحضارة الحكم الإسلامي وثقافته فنكتب مقالات مسهبة عنها مهما أمكن لنا فإن نجحنا في هذا فسننشر مثل تلك المقالات في مجلتنا بين الحين والآخر وهكذا نستطيع تدوين تاريخ كامل لحضارة المسلمين وثقافتهم ثم ننشره في صورة كتاب مستقل.

هذه المقالة تتعلق بفرع من أشغال العامة يتحدث عن رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي.

الحارث بن كلدة: الطبابة الفطرية توجد في كل قوم منذ أقدم الزمان وكانت موجودة في المجتمع العربي أيضًا منذ القدم، ولكن الطبابة العلمية التي تتطلب الكسب والتعلم نجد أثرها كذلك بين العرب منذ مدة مديدة، فقد رحل الحارث بن كلدة الذي كان من أهالي طائف قبل بعثة الرسول --- إلى فارس ليتعلم الطب ولما رجع لقّبوه بـ"طبيب العرب". ونظرًا لفن الطب فقد وصل إلى بلاط أنوشيروان ثم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جاء ولده النصر بن الحارث فاشتهر أكثر من والده وبفضله تطوّر فن الطب في المجتمع العربي حتى أنه لما هاجم عمر الفاروق فارس أمر أن يرافق الجيش العديد من الأطباء العرب.

ترك الأمير معاوية جزيرة العرب فجعل دمشق عاصمة حكمه واعتنى بأمور الدولة وأقام له بلاطًا على طريقة العجم كما عين طبيبًا نصرانيًا في بلاطه يسمّى ابن آثال وكذا ارتبط بالبلاط العديدُ من الأطباء غيره.

أول بيمارستان: وبجانب سعة الحضارة اتسع نطاق هذا القسم وبرز في البلاط العديدُ من الأطباء والجراحين الذين كانوا يحترفون الطب في بيوتهم لأن البيمارستانات لم تنتشر حتى تلك الفترة فأول من بنى بيمارستانًا كان الخليفة الأموي الثالث الوليد بن عبد الملك. كان الوليد شغوفًا برفاهية العامة وله أعمال كثيرة في هذا المجال، فهو أول من أقام دارًا للضيوف وأحصى عدد كافة العمي والمعوقين في الخلافة فقرّر لهم منحًا كما عيّن خدامًا لكل واحد منهم، وكذا قرّر رواتب شهرية للمجذومين وحظر عليهم الخروج من بيوتهم، وبهذه المناسبة وضع حجر أساس بيمارستان تم بناؤه في ٨٨هـ وعيّن فيه العديد من الأطباء والجراحين[١].

وكانت فائدة وضع قسم الطب أنّ كثيرًا من العلماء النصرانيين واليهود وصلوا إلى البلاط، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه للعثور على العلوم والفنون اليونانية لأن أروع كتب الطب وأجودها كانت باللغة اليونانية ولن يمكن أي تطوّر في المداواة وصنع الأدوية بدون ترجمتها العربية فقام ماسرجويه اليوناني بترجمة قرابادين أهرن من السريانية إلى العربية وصانه في المكتبة الملكية ولما جاء عصر عمر بن عبد العزيز أخرجها من المكتبة وعمّم نفعها بوضع نسخ عديدة لها ونشرها في البلاد[٢].

وبعد قليل عمّت البيمارستانات كل أنحاء البلاد. وفي العهد العباسي اشتهر بيمارستان جنديسابور الذي كان جارجس مسؤولًا عنه. كان جارجس ماهرًا للغة اليونانية ومجتهدًا في الطب فقام بإعداد قرابادين جيد

---

[١] المقريزي، ٤٠٥/٢

[٢] عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ١٦٣/١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالسريانية ليتم العمل عليه في البيمارستانات، ثم ترجمه حنين بن إسحاق إلى العربية. وفي ١٤٨هـ يئس الخليفة العباسي المنصور بعدما أصابه المرض فأرسل إلى جارجس، فأقام جارجس ولده مقامه وحضر البلاط فشفي المنصور بمداواته فطلب منه المنصور أن يترجم كتب اليونانية إلى العربية. الطبيب الآخر في ذالك البيمارستان الشهير كان سابور بن سهل في عهد المتوكل بالله وتوفي في ٢٥٥هـ. وقد أعدّ قرابادينًا مفصّلًا يحتوي على ١٧ بابًا فبقي هذا القرابادين معمولًا به في كافة البيمارستانات لقرون. وكذا كان ماسويه طبيبًا شهيرًا والذي فصّل أخباره العلامة ابن أبي أصيبعة، خدم هذا البيمارستان لمدة ٣٠ سنة واضعًا الأدوية وخادمًا للمرضى.

دخول طريقة ويدك في العلاج: كان العلاج إلى بداية العصر العباسي يتم حسب الأصول اليونانية والفارسية، لكن شيئا فشيئا وبفضل البرامكة انضمت إليها أصول طريقة ويد.

وقد أرسل رئيس وزراء هارون الرشيد وعضد الدولة العباسية يحيى بن خالد البرمكي رجلًا إلى الهند لكي يجمع أدويتها وعقاقيرها فيأتي بها إلى بغداد[١] وكذا طلب يحيى أطباء الهند المشهورين إلى البلاط فلبّى دعوته منكه وصالح وابن دهن فقام منكه بترجمة العديد من كتب السنسكريتية الطبية إلى العربية، وعيّن ابن دهن مسؤولًا عن البيمارستان الذي بنته أسرة البرامكة في بغداد، ولو أن بغداد كانت تضجّ بالبيمارستانات ولكن بيمارستان البرامكة تميز بوجود مدير وطبيب هندوسي، ويمكن به أن نقدّر عدم عصبيتنا نحن المسلمين وتقديرنا لدرجة العلماء والحكماء. وسوشورتا الذي كان أبرز حكماء الهند وأطبائها ألّف كتابًا في الطب يحتوي على ١٠ أبواب فأمر يحيى منكه بترجمته إلى العربية[٢] ولما تمت الترجمة أمر أن يعمل عليه كقرابادين في البيمارستانات.

راتب المفتّش العام للبيمارستان: بنى هارون الرشيد بيمارستانًا خاصًا وعيّن ماسويه طبيبه ومديره، وقد أقيم قسم عام أفرد للطب وجعل لكلّ بيمارستان طبيبٌ مسؤولٌ، كما عين مفتّش عام لكافة

---

[١] فهرست ابن النديم، ص ٣٤٥

[٢] الفهرست، ص ٣٠٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

البيمارستانات والذي أعطي لقب "رئيس الأطباء"، فأوّل من أعطي هذا اللقب كان بختيشوع في ١٧١هـ ثم ولده جبريل في ١٧٥هـ. كان راتب جبريل الشهري يبلغ قدره عشرة آلاف درهم كما كان يعطى علاوة شهرية قدرها خمسة آلاف درهم[١]. هذا كان راتبًا خاصًا بالمنصب وأما ما كان يدرّ عليه من البلاط وزبيدة وأسرة البرامكة فكان مبلغه مئات ألف درهم الذي ذكر تفصيله العلامة ابن أبي أصيبعة ناقلًا من وثائق حساب جبريل. كان بختيشوع وجبريل نصرانيين، ولكنهما كان مكرّمين في بلاط هارون والمأمون إلى حد أنه كان الوزراء والأمراء يقدّمون طلباتهم إلى الخليفة بواسطهم، وكان بختيشوع يضاهي الخليفة في الملابس والمراكب والأثاث والعظمة والشأن.

وبالرغم من أن البيمارستانات قد عمّت كل أنحاء البلاد نتعجب أن مصر قد حرمت لمدة طويلة أي مبنًى من هذا النوع فقد ذكر العلامة المقريزي بيمارستانًا لمغافر تم بناؤه بأمر من فتح بن خاقان وزير الخليفة المتوكل بالله ولكننا لا نجد أي تفصيل لتاريخ بنائه أو ما شابهه من الأمور وكتب في ذكر بيمارستان ابن طولون أنه لم يوجد أي بيمارستان في مصر قبل هذا. ولعل السبب وراء هذا هو أن مصر كانت مركزًا للطب قبل مجيء الإسلام وقد برز فيها أطباء كبار كانوا يعتبرون أقرانًا للأطباء اليونانيين، وبفضل هؤلاء الحكماء راجت الصيدليات التي كان يداوى فيها المرضى فكأن دار كل حكيم كانت صيدلية وبيمارستانًا مستقلًا، ويمكن بل يغلب الظن أنها قد وجدت بها بيمارستانات مستقلة. وقد جعلت تبنى البيمارستانات في عصر الوليد بعد مجيء الإسلام وعمّت شيئًا فشيئًا كافة أنحاء الدولة الإسلامية وكان مديروها والمسؤولون عنها وأطباؤها كلهم نصارى فلم تكن هناك حاجة إلى هدم البيمارستانات القديمة وبناء المباني الجديدة بدلها، وأيًا كان الأمر فلم يوجد أي بيمارستان إسلامي في مصر حتى عصر ابن طولون.

كان أحمد بن طولون عاملًا على مصر والمغرب والشام وبما أن الدولة العباسية كانت تعاني من الضعف يوميًا فقد أصبحت مصر كدولة مستقلة، ففي ٢٦١هـ وضع حجر أساس بيمارستان كبير ولما تم بناؤه وقف له أراضي وقدّر مبلغ تكليفه ٦٠ ألف دينار، والذي يعادل ثلاثة مائة ألف روبية، وكان

---

[١] الطبقات، ص ١٣٦ و١٧٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يداوى فيه المريض بحيث تؤخذ ملابسه ونقوده وتودع لدى أمين مال البيمارستان، وكان يمنح لباسًا جديدًا وفراشًا، وكان يزوره الأطباء والجرّاحون كل صباح ومساء ويصفون له قدرَ الدواء ويزيدن فيه أو ينقصون، فإذا شفي وقوي حتى يتمكن من أكل الخبز ومرق الدجاج ترد له ودائعه ويسمح له بالخروج من البيمارستان. وكان أحمد بن طولون يزور البيمارستان كل جمعة ويقوم بالتفتيش، ثم يعود كل مريض على حدة[1]. وقد خصّت غرف لمداواة المجانين وكانوا يعالجون بكل حيطة وعناية.

ندرة: قد ابتكر ابن طولون شيئًا في هذا البيمارستان بأنه بنى في ٢٦٣هـ مسجدًا فخمًا بجواره كلّف مائة ألف دينار ثم بنى حجرة واسعة بجانبه مليئة بأشربة متنوعة وأدوية حاضرة وقرّر طبيبًا يحضره كل جمعة منذ أوّل وقت الصلاة حتى آخره فإن أصيب أحد بحالة طوارئة حمّل إليه لمداواته.

البيمارستانات في عهد المقتدر بالله: طوّر المقتدر بالله هذا القسم فجدّد أمورًا عديدة، فكان علي بن عيسى وزير الخليفة وكان راغبًا في رفاهية الشعب ومما اتفق أن أوبئة عديدة قد انشرت في تلك الفترة، فأرسل علي مرارًا إلى سنان بن ثابت بن قرة الطبيب الصابئ الشهير والمفتش العام للبيمارستانات أوامر عديدة ووضع معامل ومصانع عديدة تابعة للبيمارستانات.

بيمارستان السجن: فأول ما فعل هو أنه أمر سنان بتخصيص أطباء لمداواة المرضى في السجون، لأنه لم يكن هناك أطباء لعلاج المرضى في السجن إلى تلك الفترة.

البيمارستانات المؤقتة: وكذا أقام صيدليات/بيمارستانات موقتة فعين أطباء كي يعالجوا في القرى التي لا يوجد بها أطباء بحيث يقيموا لأيام في كل قرية ويعالجوا المرضى، وكان مع هؤلاء الأطباء لوازم الصيدليات وكانوا يعالجون في القرى والمقاطعات.

---

[1] كتاب الخطط والآثار، ٤٠٥/٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بداية طريقة الاختبار: والشيء الجديد هو أن طريقة الاختبار قد بدأت، وذلك أن طبيبًا غير ماهر عالج مريضًا في ٣١٩هـ فمات بسببه المريض فلما بلغ الأمر الخليفة أمر بأن لا يسمح لأحد بممارسة الطب ما لم يمرّ بطريقة الامتحان.

الجرّاح والطبيب يحملان الشهادة: عيّن سنان بن ثابت ممتحنًا وقدم الآلاف من الأطباء الامتحان ولنقدّر سعة حدود بغداد وعظمة حضارتها أن ٨٦٠ طبيبًا اجتازوا الامتحان فمنحوا الشهادة. مع أن من اعترف بفضلهم في هذا المجال وكانت مهارتهم معترفًا بها، لم يطلب منهم حضور الامتحان وكذلك لم يحضره من ارتبط بالبلاط، وكانت الشهادة تحمل صراحة نوع الامتحان ونوع المداواة كذلك.

وبجانب هذا النظام فقد أقام العديد من البيمارستانات الكبيرة ومنها ما أقامه على اسم أمّه وكان يكلّف سنويًا سبعة آلاف دينار مما يعادل ٣٥ ألف روبية. أقيم هذا البيمارستان على شاطئ دجلة نظرًا للجوّ الملائم والمنظر الجميل. تم تدشينه في شهر محرم ٣٠٦هـ وعيّن له العديد من الأطباء والجرّاحين على رواتب ملموسة، ونفس السنة أقام بيمارستانًا على اسمه والذي كان يكلّف مائتي دينار شهريًا أي ألف روبية هندية[١].

وفي ٣٠٢هـ أقام علي بن عيسى الوزير بيمارستانًا على نفقة منه بمحلة الحربية وعيّن له طبيبًا شهيرًا اسمه أبو سعيد بن يعقوب، وفي ٣١٣هـ أقام ابن الفرات بيمارستانًا بجي درب المفضل وحمّل ثابت بن سنان مسؤوليته[٢]. هذه هي البيمارستانات التي أقيمت في بغداد ذاتها، والتي قد جمعنا معلوماتها بقدر من التفصيل ولكن من الممكن أن معالم أخرى لا تحصى أقيمت من هذا النوع بفضل جود الإسلام مما لا نعثر على شيء من تفصيلها.

---

[١] عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٢١-٢٢٢ والمنتقى في أخبار أمّ القرى، ص ٦١

[٢] الطبقات، ص ٢٢٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو أن بغداد كانت مليئة بالبيمارستانات إلا أن كثرة السكان تطلّبت المزيد منها فأقام عضد الدولة بيمارستانًا آخر قال عنه المؤرخون أنه لم يوجد له نظير في العالم كله وذلك لأنه تميز بفخامة البناء، وكثرة الآلات، وترتيبه والجودة.

فيقول العلامة ابن خلكان: ليس في الدنيا مثل ترتيبه وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه". كان عضد الدولة من أشهر ملوك العالم فهو أول حاكم في تاريخ الإسلام لقّب بالملك، ولم يذكر اسم أي خليفة في الخطب سوى الخلفاء العباسيين، وهو أول من ظفر بهذا الفخر من غير الخلفاء العباسيين، فكانت مملكته واسعًا نطاقها ومنظّمًة إدارتها. وكان يحبّ العلم من أعماق قلبه وكان يرغب في الأمور المتعلقة برفاهية الشعب فقام بتطوير قسم الرعاية الطبية تطويرًا كبيرًا فأقام البيمارستانات الجديدة في كل قرية ومقاطعة، كما قام بترميم القديم منها، والبيمارستان الكبير الذي ذكرناه آنفًا تم بناؤه في ٣٦٨هـ فكان هذا البيمارستان كمثل جامعة طبية أعدّت فيه الكثير من الآلات وعيّن العديد من الأطباء المشهورين لإلقاء المحاضرات كما وظّف أطباء معروفين من أقصى البلاد وأدناها. كان عددهم ٥٠ في البداية ثم بعد انتخابهم تقلّص إلى ٢٤ طبيبًا ومن أشهرهم ابن كبس وأبو يعقوب وابن كشكرايا وأبو عيسى وبنو حسنو.

ومن بين الجراحين الذين تلألأت أسماؤهم هما أبو الخير وأبو الحسن النفاح، وكان يرأس واضعي الضماد أبو الصلت الذي لم يكن له نظير في هذا الفن.

وقد شملهم الكحّالون وأشهرهم أبو النصر بن الرحلي كما ضمّهم الأساتذة الكبار من علماء وظائف الأعضاء وبالجملة فقد تم تعيين كبار وحذاق أطباء كل قسم طبي ليعالجوا المرضى كما ليلقوا المحاضرات وسنفصّل ذكر بعض منهم فيما بعد.

وقد برز ملوك وسلاطين مسلمون في القرن الرابع الهجري فبرزت على صفحات التاريخ حكومات ودول كبيرة مثل السامانية والسلجوقية والغزنوية والفاطمية والنورية والأيوبية والأتابكية وغيرها من السلالات الملكية. ولو

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أن هذا التقسيم قد أضرّ بالقوة الاجتماعية ولكن قسم رفاهية الشعب قد لقي تطورًا بالغًا وذلك لأن كل حكومة جديدة كانت تستخدم هذه الطريقة المفيدة لقبولها لزيادة شعبيتها، الأمر الذي طوّر الطب وبرز في كل مكان بيمارستان جديد، فلما سافر العلامة ابن جبير في القرن السادس الهجري إلى العراق والشام في رحلته لحج بيت الله الحرام، تحيّرت عيناه من كثرة البيمارستانات في بغداد والموصل وحران وحلب وحماة ودمشق فقام بذكر هذه البيارستانات تارة بالتفصيل وأخرى بالإجمال. وفي نفس الفترة أكثر السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين تأسيس البيمارستانات في أنحاء البلاد التي حكما عليها، ونقوم هنا بذكر بعض منها:

النورية: أسّس نور الدين الزنكي هذا البيمارستان في دمشق؛ أسر نور الدين حاكمًا أوربيًا في الحروب الصليبية فقدّم مبلغًا هائلًا لفكّ أسره فحرّره نور الدين، وبهذا المبلغ أسّس نور الدين هذا البيمارستان، يمكن بهذا تقدير كلفة بناء البيمارستان. وصنع أبوابه العالية الجميلة مؤيد الدين الذي كان نجّارًا كبيرًا والذي قرأ الأقليدس والمجسطي لأجل مهارته في النجارة[1].

وكان من تقاليد البيمارستانات إلى تلك الفترة أن الأمراء والأغنياء لم يسمح لهم بالعلاج فيها، ولكن وثيقة الوقف التي كتبها نور الدين جاء فيها "الأدوية النادرة التي لا توجد إلا في هذا البيمارستان يسوّى في استخدامها الأغنياء والفقراء". ولقد شاهده العلامة ابن جبير خلال رحلته فيكتب أن فيها العديد من المحررين والأطباء والخدّام، وسجل المرضى يكون لدى المحرر والذي يحوي تكاليف الدواء، وما يحتاجه المرضى بجانب تفصيل أسمائهم. يعود الأطباء كل مريض في الصباح ويراقبون علاجهم وغذاءهم. فالكلفة اليومية حوالي مائة روبية" وكذا ذكر العلامة أن لدمشق بيمارستانًا آخر من هذا النوع ولكن الأخير جديد وعظيم كذلك.

لما دمّر السلطان صلاح الدين حكومة الفاطميين، وجد قصرًا شامخًا من بين قصورهم والذي نسخ على جدرانه القرآن كله فلما رآه السلطان قال: هذا المكان يناسب البيمارستان فحوّل القصر بعد

[1] عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٩٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تصريف قليل إلى البيمارستان في ٥٧٧هـ وعيّن له عديدًا من الأطباء والجراحين وعلماء الطبيعة والمشرفين عليه والعمّال والممرّضين[١].

وقد ذكر العلامة ابن جبير أن بيمارستان القاهرة هذا من مآثر صلاح الدين، إنه قصر فخم له حجرات وفي كل حجرة أسرّة وعليها فرش منظّمة ووسائد، كما توجد فيه حجرة خاصة بالدواء، فيها صانع الدواء والكاتب، وكذلك قسم خاص بمداواة النساء وتم فيه تعيين النساء للعناية بهن. وأما مرضى الجنون فلهم أبنية خاصة لها ساحات واسعة، وفي نوافذها قضبان من الحديد ويشرف على البيمارستان سكرتير طبيب يتبعه خدّام يعودون المرضى صباح ومساء، كما يقومون بزيادة أو نقص الدواء، ويأتي السلطان ذاته لتفتيش البيمارستان ويؤكّد على عيادة المرضى والعناية بهم. ويضيف أنه يوجد في القاهرة بيمارستان آخر من نفس الدرجة.

والبيمارستان الذي أقامه السلطان في الإسكندرية كان ممتازًا كذلك، وتميز بتعيين أطباء خواص لمن لا يودّ أن يتم علاجه مع عامة المرضى، فهؤلاء الأطباء كانوا يزورونهم في بيوتهم ويقومون بمداواتهم فيها. وكذلك تمتع من هذه السماحة المسافرون والأجانب.

وبفضل نور الدين وصلاح الدين راجت البيمارستانات وانتشرت، ففي ٦٦٣هـ أصيب الملك منصور قلاوون الذي كان ضابطًا عسكريًا في تلك الفترة، أصيب بالقولنج في إحدى رحلاته. كان مرضه شديدًا للغاية ولم تكن الأدوية الموصوفة توجد في أي مكان فطلبت من بيمارستان نور الدين، فلما شفي قلاوون زار البيمارستان، وأعجب به ونوى بناء بيمارستان أكبر من ذلك، فلما تولّى الحكم في ٦٧٨هـ، بدأ يبني البيمارستان، وكما نعلم أنه لم يبن بيمارستان أفخم من هذا في أي دولة إسلامية سوى البيمارستان العضدي، بل كان يمتاز عن البيمارستان العضدي ببعض خصائصه.

---

[١] المقريزي، ٤٠٧/٢

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان بين قصور الفاطميين قصر واسع بناه ابن الخليفة العزيز بالله فلما زالت خلافته سيطر عليه السلطان صلاح الدين وكانت أسرته ترثه، فلما عزم قلاوون على بناء البيماستان لم يجد مكانًا أنسب منه فاشتراه من صاحبه ووضع حجر أساس البيمارستان في ٦٨٣هـ. وكان القصر يحتوي على أربع قاعات كبيرة وكان محيطه ١٠٦٠٠ قدم، كما كان يجري فيه نهر يسقي من فيه، فلم يغيّر قلاوون القاعات، وأضاف إليها مباني جديدة. وكان يعمل فيه ٣٠٠ أسير مع العمّال الآخرين كل يوم، وقد أمر كل بنّاء وعامل في مصر والقاهرة أن لا يعملوا إلا في هذا البيمارستان، كانت كل الأعمدة إما من المرمر أو الرخام، وكان قلاوون يأتي للمراقبة كل يوم، فاستغرق بناؤه ١١ شهرًا متواصلة، يذكر السخاوي أن هذا البيمارستان يعدّ من أفخم مباني القاهرة وأشهرها، وقد وقف قلاوون عدة أراضٍ لتكلفتها، كان مبلغها السنوي مليون درهم، وقد جاء في وثيقة الوقف: هذا البيمارستان مسموح لكل غني وفقير، وملك ورعية ويسمح باستخدام الدواء حتى لمن لا يدخله.

ومما تم الالتزام به أنه كانت حجرة خاصة لكل مرض فكانت القاعات الأربع القديمة مخصوصة لمن أصابه الحمّى، كما كانت مبان خاصة لأمراض العين، ومرض الرعشة، ومرض الإسهال، وكذلك تم التفريق بين الرجال والنساء بالنسبة للأقسام، وهكذا كانت فيه حجرات خاصة لطبخ الطعام، وصناعة الأدوية، وحفظ سجلات المرضى، وإلقاء محاضرات الطب، وغيرها من الأشغال. ومن الممتع أن كل هذه الحجرات يبلغها الماء عن طريق النهر الجاري في القصر، وكان الماء يجري لأربع وعشرين ساعة.

وكان بجوار البيمارستان مدرسة كان يدرّس فيها فقهاء المذاهب الأربعة، وقد قسّم البيمارستان إلى أقسام عديدة لكي يحسن التنظيم والتنسيق وقد عيّن لكل قسم سكرتيرٌ. ولتقدير كثرة المرضى الزائرين له يرجى النظر في خمسمائة رطل من شراب الرمان التي كانت تصرف يوميًا علاوة على الأشربة العادية الأخرى.

وقد أقيمت بيمارستانات عديدة في مكة المعظمة والمدينة المنورة، فالبيمارستان الفخم الذي بناه الخليفة المستنصر في ٦٢٨هـ بمكة قام بترميمه الحسن بن عجلان في ٦١٦هـ بتكلفة قدرها أربعون ألفًا، وكذا قام

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السلطان الظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ) بترميم بيمارستان المدينة المنورة القديم وأرسل من مصر طبيبًا وكل نوع من المعجونات والأدوية.

وكذلك وجدت بيمارستانات كثيرة في الهند، ولو نثق برواية المقريزي نجد في دلهي فقط سبعين بيمارستانًا في عصر السلطان محمد بن تغلق.

وكان من بين الاثني عشر أمرًا أصدرها جهانغير حين تولّيه العرش في ١٠١٤هـ ما نصه: "يجب أن تبنى البيمارستانات في كل مدينة كبرى ويعيّن فيها الأطباء لمداواة المرضى ولينفق عليها من الأراضي الحكومية البحتة".

وهناك أمور تجب ملاحظتها بالنسبة لتاريخ البيمارستانات:

١. السبب الرئيسي لكثرة البيمارستانات أن البيمارستان الذي يبنى في عهد أي سلطان لا يمكن تدميره لأن البيمارستان والأراضي المتعلقة به كانت تأتي تحت الوقف، والوقف لا يسمح لأحد بالتصرف فيه، وأما السلطان الجديد الذي كان يتولّى العرش فكان يحاول طوعًا أو كرهًا أن يزيد على ما وجد من الآثار.

٢. لم يكن نوع من البيمارستانات إلا ووجد في الحكم الإسلامي ولقد ذكرنا آنفًا البيمارستانات المتحركة وبيمارستانات المساجد، وقد كان بيمارستان الجيش منسّقًا و منظما. وقد تم تنظيم الأطباء والأدوية في عصر الصحابة أنفسهم ولكن بيمارستان الجيش قد بادر به السلطان محمود، فقد كان بيمارستان جيش السلاجقة يحمل على مائتي إبل[١].

٣. أن الأطباء الذين كانوا يعيّنون مفتشي البيمارستانات العام أو مشرفين عليها كانوا أساتذة مجتهدين للفن، فأبو بكر الرازي الذي يعتبر ركنًا من أركان فن الطب والذي استفاد ابن سينا من مؤلفاته البالغ عددها مائتي كتاب، كان طبيبًا في بيمارستان الري وكذا كان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي

[١] تاريخ سلجوقي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان مسؤولًا عن بيمارستانات بغداد ومكة والمدينة المنورة كان طبيبًا شهيرًا. وقد قام بترجمة العديد من كتب اليونانية إلى العربية، وهكذا كان سنان بن ثابت الذي كان مفتشًا عامًا في عصر المقتدر بالله يعدّ ركنًا من أركان فن الطب ولإثبات ما كتبنا يرجى الرجوع إلى أخباره المذكورة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

كان يعمل في البيمارستان العضدي ٢٤ طبيبًا وكان كل طبيب ماهرًا لفنه ونذكر فيما يلي أخبار بعض منهم بكل إيجاز:

أبو الحسن كشكرايا: كان حكيمًا مشهورًا. كان يخدم بلاط سيف الدولة في أيامه الأولى، تميز من بين تلامذة سنان بن ثابت.

أبو الحسن كشكرايا: كان نصرانيًا يعرف العديد من اللغات، قام بترجمة العديد من الكتب اليونانية إلى العربية.

أبو الفرج: كان حكيمًا وفيلسوفًا نصرانيًا كتب شروحًا وحواشي عديدة لكتب أرسطو وأبقراط وجالينوس، ذكره ابن سينا في مؤلفاته واعترف بفضله في الفن. كان يلقي محاضرات في الطب بجانب مداواة المرضى. ذكر فهرس طويل لمؤلفاته في عيون الأنباء في طبقات الأطباء.

إبراهيم بن بكس: كان يعرف العديد من اللغات، قام بترجمة كتب اليونانية إلى العربية كما كان يلقي المحاضرات في الطب.

سعيد بن هبة الله: كان طبيبًا للخليفة المستظهر بالله، من مؤلفاته المغني وكتاب الإقناع وغيرهما.

أمين الدولة بن تلميذ: كان حكيمًا نصرانيًا شهيرًا يتضلع من السريانية والفارسية والعربية. عيّنه الخليفة مسؤولًا عن قسم شؤون الطب في بغداد وكان يحضر عنده كافة الأطباء كما كان يشرف على البيمارستان العضدي. خلف مؤلفات عديدة مفيدة.

٤. وبجانب هذه البيمارستانات كانوا يلتزمون بإيصال الأدوية الجيدة فقد أقيم قسم لتفتيش ومراقبة الأدوية التي كان يبيعها العطّارون ومن كان يرأسها يسمّى "رئيس الشابين" وعادة كان يعيّن في هذا المنصب أطباء ماهرون في فن النبات، ففي القرن السابع الهجري عيّن في هذا المنصب ضياء بن بيطار (ت ٦٤٦هـ) الذي كان ماهرًا في هذا الفن إلى حدّ أنه لم يبرز من بين المسلمين من يضاهي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

به، وقد حفظ عن ظهر قلب كل ما ألّف باليونانية من الكتب وما زيد فيه من قبل المسلمين، ليس هذا فحسب بل سافر إلى أقصى البلاد وبحث عن النباتات في اليونان وإيطاليا والجزائر والبحر المتوسط، وكان دائمًا يأمر برسم صور النباتات والأعشاب بأيدي الرسامين الذين كانوا يرافقونه دائمًا، وكان يضبط آثار أحوالها المختلفة. وقام بالكشف عن العديد من أخطاء وزلات اليونانيين كما اكتشف العديد من النباتات والعقاقير الجديدة التي لم يعثر عليها اليونان.

٥. من كان يعيّن للأعمال المكروهة في البيمارستانات مثل الجراحة والكحل والفصد كان عادة ماهرًا في فن الطب ولم يكن مثل أطبائنا في الهند الراهنة والذين لا يقتربون من الجراحة والفصد، فالبيمارستان الذي أقامه السلطان صلاح الدين عيّن كحّاله القاضي نفيس الدين (ت ٦٣٦هـ) الذي كان رئيس أطباء مصر كلها وكذا كان أبو الخير وأبو الحسن بن تفاح يقومان بالجراحة في البيمارستان العضدي كما عيّن الحكيم أبو الصلت لجبر العظام ووضع الضماد.

٦. هذا تاريخ موجز للغاية للبيمارستانات الإسلامية ولقد تم توسيع هذا القسم في الحكم الإسلامي حتى ألّف العديد من الأطباء مثل أبي بكر الرازي وأمين الدولة بن تلميذ وأبي سعيد زاهد العلماء في أخبار البيمارستانات وتجاربهم فيها ولكن من الأسف أن تلك الكتب لا توجد اليوم في أي بقعة من بقاع العالم فليقتنع القرّاء بما وفّرناه لهم من المعلومات القليلة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

علم الميكانيكا والمسلمون

(ميكانيكا) كلمة يونانية، والتي تحوّلت في اللغة الإنجليزية إلى (Machine) وتعريبها في لغتنا الأردوية بـ"كل" وبالرغم من أن هذا العلم قد تطوّر إلى حد كبير إلا أنه قديم جدًا. كان اليونانيون يحصلون عليه كعلم، وحينما تعلم المسلمون علوم اليونانيين وفنونهم لم يكتفوا بالحصول عليه بل طبقوه عمليًا. ويعرف في اللغة العربية بعلم الحركات أو علم الحيل، ولكن الكلمة اليونانية مستعملة أيضًا بعد تغيير بسيط. إن كلمة "منجنيق" المستعملة بكثرة في اللغتين العربية والفارسية والتي أخطأ فيها علماء اللغة لدينا من ناحية الاشتقاق، هي في الأصل معرّبة عن ميكانيكا والفرق أنها لا تستعمل الآن بشكل عام إنما أطلقت على آلة خاصة.

بدأ هذاالفن لدى المسلمين عندما تمّت ترجمة المؤلفات اليونانية في العصر العباسي وترجمت كتبه مع كتب العلوم والفنون الأخرى، والكتب التي استطعنا أن نحصل على أسمائها هي:

١. كتاب عمل الآلة التي تطرح البنادق لأرخميدس
٢. كتاب الدائرة والدواليب لهرقل النجار
٣. كتاب في الأشياء المتحركة من ذاتها لأيرن
٤. كتاب آلة الزمر البوقي
٥. كتاب آلة الزمر الريحي
٦. كتاب الدواليب لمارطس
٧. كتاب الأرغنون[١].
٨. كتاب أيرن في الجرّ الثقيل

[١] راجع: كتاب الفهرست (طبعة أوربا)، ص ٢٨٥

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الكتاب الأول والأخير من الكتب السابقة موجودان إلى يومنا هذا في مكتبة المتحف البريطاني، ويحتوي الكتاب الأول على صور عديدة[1]. استطاع المسلمون بعد الاطلاع على الكتب اليونانية أن يخترعوا أمورًا جديدة في هذا الفن ويؤلفوا كتبًا مستقلة وجديدة، وألّف بنو موسى الذين كانوا فلاسفة البلاط لدى المأمون كتابًا لهذا الفن والذي اشتهر خطأ بكتاب الحيل، يعتبر هذا الكتاب ممتازًا من ناحية التحقيق والاختراع، وقد ذكر ابن النديم[2] أنه يحتوي على وصف لعديد من الأعمال الميكانيكية كما يذكر ابن خلكان من القرن السابع الهجري أنه قرأ هذا الكتاب الذي يحتوي على عجائب ونوادر عديدة وهو أفضل كتاب لهذا العلم.

يكتب البروفيسور سيديو (Sediuat) وهو كاتب معروف من فرنسا في كتابه Histoiregenerato Desarabes (ص ٢٤٩) الجزء الثاني:" ليست بنا حاجة أن نذكر أن علم الميكانيكا قد وصل إلى أوجه في عهد المسلمين".

ويكتب البروفيسور الفرنسي ليبان (Ledun) في كتابه Lacirilisati Undesarabes:" كان العرب يعلمون جيدًا علم الميكانيكا وخاصة الطريقة العملية". ونستطيع أن نحصل على الآلات التي اخترعوها حتى في يومنا هذا. وما كتبه المؤرخون القدامى عنهم (عن العرب) يدل على طول باعهم. شيء أكيد أنهم كانوا يمتلكون ساعات ذات الرقّاص والتي كانت تختلف عن الساعات المائية وذلك ثابت ببيان بعض المؤلفين خاصة بيان طاليد (Tndeta) بنجامن الذي سافر إلى فلسطين في القرن الثاني عشر الميلادي وكتب تفاصيل ساعة مسجد دمشق[3].

إن أولى الاختراعات التي تذكر في مجال علم الميكانيكا هي الساعة التي أهداها الخليفة هارون الرشيد لشارليمان إمبراطور فرنسا. وقد ذكرها أغلب مؤرخي أوربا وأيضًا البروفيسور سيديو كدليل على تطور علم الميكانيكا. وصف المؤرخون الساعة بأنها كانت تحتوي على اثني عشر بابًا صغيرًا، وبعد مرور ساعة

---

[1] راجع: فهرس الكتب العربية الموجودة في مكتبة المتحف البريطاني، ص ٦١٩

[2] كتاب الفهرست، ص ٢٨٥

[3] وسنفصّل ساعة جدارية لمسجد مشق

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كاملة من الزمن تفتح الأبواب على عدد الساعات التي مرّت وتسقط كرات مصنوعة من النحاس على صفيح معدني بعدد الساعات، فتصدر صوتًا. وتظل الأبواب مفتوحة حتى إذا اكتملت دورة اثنتي عشرة ساعة يخرج اثنا عشر فارسًا من الأبواب، ويقومون بدورة على سطح الساعة.

وقد أنكر السيد بامر وجود هذه الساعة على أساس أن المؤرخين العرب لا يذكرونها في كتاباتهم، لكن السيد بامر لا يدرك أن المورخين العرب صرفوا النظر عن الآلاف من الأحداث التي ثبتت من مصادر أخرى حتى أن المؤرخين لم يذكروا شيئًا عن سفراء شارليمان. هل ينكر السيد بامر ذلك أيضًا؟ وقد ذكر المؤرخون الأوربيون هذه القصة بأسناد قوية جدًا. مثلًا قدّم البروفيسور سيديو دليل المؤلفات من قبل مارجني واجنارت، والأخير كان موجودًا في زمن الإمبراطور شارليمان.

إن من الغريب أن الهدايا التي أرسلها هارون الرشيد لشارليمان موجودة إلى الآن في معبد بايتون في فرنسا، ولكن الساعة غير موجودة. ويصف أحمد زكي المصري الذي زار أوربا ١٨٩٢م هذه العمارة فيقول: إن الشيء الممتع لسائح شرقي هي تلك الغرفة التي زيّنت جدرانها بصور شارليمان وهو يستقبل سفراء هارون الرشيد، ويد السفير تحمل مفاتيح بيت المقدس التي أرسلها هارون الرشيد هدية لشارليمان. توجد في الغرفة أيضًا ستارتان بقيمة ٦٤ ألف روبية".

على كل حال، إن ثبت وجود هذه الساعة أو لا، لا نستطيع أن ننكر أنه تمت صناعة كثير من الساعات والآلات الميكانيكية في عهد المسلمين والتي نذكر بعضها في مقالتنا.

قد سافر العلامة ابن جبير إلى الشام والحجاز عام 578 للهجرة. وكتب في أحوال رحلته صفة ساعة في جامعة دمشق: بني في حائط هذه الصفة دائرة. وصورت فيها صورة الفَلك، وجعلت فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة: وفي الدائرة بازان من ذهب، في طاسين من ذهب. ووراءهما بندقتان من شبَهٍ لا يدركهما الناظر فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين، وتقع منهما البندقيتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات، والباب مذهب فيصير حينئذ مفضضًا. وإذا وقعت البندقتان في الطاسين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تذهبان إلى موضعهما. ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقة، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها، فإذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر، ثم تبتدئ في الدائرة الأخرى إلى انقضاء الليل الشمس، فتعلم بذلك أوقات الصلوات[1].

حينما بدأت صناعة الساعة كان من الممكن فقط معرفة أن ساعة من الزمن قد مرّت ولم يكن بالإمكان معرفة عدد الساعات التي مرت، وقد راجت مثل هذه الساعات بين المسلمين أيضًا في بداية الأمر، أما في ساعة دمشق فكان من الممكن معرفة الأمرين بطريقتين مختلفتين، يعني أنه كان الإعلان عن مرور الساعة عن طريق صوت الكرات المعدنية التي كانت تسقط من أوفواه الصقور، ومعرفة عدد الساعات بعدد الأبواب، لأن الأبواب كانت تغلق تلقائيًا بعد الساعات التي تمر.

وكانت في هذه الساعة طريقة أخرى لمعرفة الوقت ليلًا، وهي أن الدائرة التي كانت موجودة حول المحاريب كانت تحتوي على انثتي عشرة حلقة مصنوعة من النحاس الأصفر، وكل حلقة تحتوي على زجاج من جهة الجدار، ووراء الزجاج توجد شمعة تتحرك بقوة الماء، وكانت تتحترك حسب الساعات أمام الحلقات، ويصبح لون الحلقة التي تكون الساعة أمامها أحمر، حتى تتحول كل الحلقات إلى اللون الأحمر حين يأتي الصباح[2].

المدرسة المشهورة التي انشأها الخليفة المستنصر بالله العباسي (ت٦٤٠هـ) والتي كانت تسمّى المستنصرية، جهّزت لها ساعة عجيبة، وكانت صفتها أنها كانت تحتوي على حلقة من اللازورد مثل السماء، وفيها شمس تتحرك رويدًا رويدًا. وقد كتب العلامة الجوزي بعض الأشعار في مدح هذه الساعة:

---

[1] رحلة ابن جبير (طبعة أوربا)، ص ٢٧١-٢٧٣

[2] آثار البلاد للقزويني (طبعة ألمانيا لسنة ١٨٤٨م)، ص ٢١١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

تهدي إلى الطاعات ساعات

الناس وبالنجم هم يهتدون

صور فيه فلك داير

والشمس تجري ما لها من سكون

دائرة من الزور وحلت

نقطة تبر فيه سر مصون

وهناك معلومات عن آلات أخرى مثل هذه غير الساعات. حصل السلطان عبد المؤمن وهو ملك مشهور من ملوك المغرب على مصحف من المصاحيف التي أمر الخليفة عثمانبن عفان بكتابتها وإرسالها إلى مصر والشام والبصرة والكوفة، وقد قدّر المؤمن هذا المصحف كثيرًا وأمر بإنشاء صندوق، وقد وصفه العلامة المقري بقوله: صنع هذا الصندوق بطريقة عجيبة، حينما يفتح بالمفتاح يفتح على مصراعيه ويخرج منه صندوق صغير عليه مرفع موضوع على كرسي ويفتح هذا المرفع تلقائيًا بنفسه ويغلق الصندوق الصغير حينما يخرج المرفع والكرسي بشكل كامل وحينما يدار المفتاح بالاتجاه المعاكس يفتح الصندوق الصغير مرة أخرى ويعود المرفع والكرسي إلى أن يدخل الصندوق الكبير ويغلق[1].

ولكن من المؤسف أن هذا الفن لم يستخدم لأي عمل جليل أو كبير أو في الأعمال للنفع العام، وتوجد مؤلفات مستقلة للمسلمين في علم الجر الثقيل، لكننا لا نعلم أن المسلمين قد استخدموا الجر الثقيل في البنايات العظيمة التي أنشأوها في مختلف أرجاء اعالم، هناك إشارات خفيفة في عهد الخليفة العباسي المتوكل بالله لكنها غير معيّنة ومشكوك فيها فلا نستطيع أن نذكرها في هذا الموقع.

[1] نفح الطيب (طبعة أوربا)، ٤٠٥/١

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية

ولقـد فقـدت الصـبرَ بعـد فرفعـت قـلمي باسـمه
زمـــــــــــــان الرحمـــــــــــــان

كتب سيد وهو نتاج التعليم الحديث ويسمّي نفسه براديكالي، في المجلة الشهرية لعلي كره مقالة بعنوان "إحياء العلوم العربية" والسبب في هذه المقالة هي الحركة التي تهدف إلى نظم تعليم العلوم العربية في علي كره وقدّمت هذه الحركة من قبل بروفيسور إنكليزي ويقال أن الحكومة أيضًا أشارت بذلك.

وسبب المعارضة والذي أظهره أركان الكلية يعني نواب محسن الملك الشيخ نذير أحمد في مقالاتهم المؤثرة إلى ذلك الحين، كان فقط أنه لم يحن الوقت بعد بالسماح للمسلمين بالتوجه إلى أشياء أخرى غير التعليم الإنجليزي ولو لدقيقة واحدة.

ولو أن هذا الأمر لم يكن أقلّ استغرابًا بأن الكلية التي يشتمل اسمها على كلة "أورينتل" (شرقية) والتي تدعي بكتاباتها وخطبها أنها مركز التعليم القومي والديني للمسلمين، وتريد أن توسع دائرة مهامها إلى الشعب الإيراني، وخاصة إحياء العلوم الدينية هي أكبر خواص جامعاتها المقترحة، أن تعلن بكل صراحة عدم اعتنائها بالتعليم العربي، لأنه كان من الممكن أن يكون هناك نظم للتعليم العربي حسب الحاجة دون الإضرار بالتعليم الإنكليزي، ولكن هؤلاء الأكابر لم يهاجموا العلوم العربية في نفسها، والسبب في ذلك ربما أن دراسة العلوم العربية (وكما يبيّن السيد الراديكالي) لا تخلق في الفطرة الحرية والشجاعة والحقيقة أن هؤلاء مرتبطون بالعلوم العربية.

لكن السيد الراديكالي نتاج التعليم الحديث لذلك تقدّم بكل حرية وشجاعة وكشف الستار عن السرّ بأن العلوم العربية ليست من الأهمية بمكان حتى يصرف الوقت على تعلمها، وبعضًا من الفقرات من مقالته كما يلي:

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- إننا نختلف مع الرأي القائل بأنه توجد في العربية علوم تنير العقل وتجلي القلب وتتطهر الأفكار وترفع العزائم وتخلق الاستقلال في الفطرة.

- وكما نفهم بأن العرب كانوا دائمًا جهلة ووحوشًا نصيبهم من التمدن والحضارة قليل، لذلك فإن وجود خزائن رائعة من العلوم والفنون في لغتهم أمر مستبعد (آمنّا وصدّقنا)

- في الحالة التي يستشهد فيها سبط الرسول عطشان في كربلا، تنتف لحى الصحابة ويرمى في المسجد النبوي روث الخيول، كيف يمكن في هذه الحالة تدوين العلوم وتطويرها.

- مجموعة أشعار الجاهلية لا تشتمل إلا على قصص الحروب الداخلية بين العرب وإسالة الدماء أو مدح ووصف العنق الطويل للناقة وعود النخيل الشائك. ولا نجد في ذلك موضوعًا علميًا.

- ماذا يوجد في كلام الزمن الماضي غير مدح الخلفاء المترفين وعشيقاتهم ذوات الوجوه الجميلة ووصف للخمر والملحقات. وماذا يستفاد من قراءة هذا الشعر المشين والتافه إلا فساد الأخلاق؟

- يقال إن العرب تفوّقوا في علم التاريخ، إن هذه التواريخ ترجمت معظمها بإضافة حواش ومقدمات رائعة إلى اللغات الأوربية وقراءتها أكثر فائدة من الكتب العربية الأصلية بكثير.

هذه كانت مقتبسات من مقالات السيد الراديكالي.

الأمر الأول الذي تجب ملاحظته هو أنه هل كان من الضروري أن يناقش السيد الراديكالي قضية إحياء العلوم العربية من هذه الناحية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نسأل السيد الراديكالي وجميع معارضي العربية أنه إذا اعترفنا بأن العربية تحتوي على ذخائر علمية جيدة فهل كانوا يبيحون تعليمها، فقد قدّم السيد مارسين خطة تعليم العلم الحديث (Science) مع العربية، فهل وافق معارضو العربية على ذلك؟ هل العلوم أيضًا لا تستحق الالتفات إليها مثل العربية؟ والأمر الملحوظ هل يدرس أصحاب الجماعة الحديثة العلم لكونه علمًا؟ هل سنجد أي شخص في ساحة الكلية إذا لم يكن التعليم الإنكليزي وسيلة للوظائف الحكومية وهل تجد الذخائر العلمية للغة الإنكليزية لديهم قبولًا حتى بعد التخرج من الكلية.

إن كانت الحالة هذه فكان كافيًا أن يقال لإنكار خطة إحياء العربية بأن هدف حياتنا وتعليمنا هو الحصول على الوظيفة الحكومية ولا يمكن ذلك بالعلوم العربية. وكان هذا استدلالًا صائبًا لا يمكن لأحد إنكاره.

وإن كان السيد الراديكالي يهدف إلى التنقيص من شأن العلوم العربية وتحقيرها فكان عليه أن يختار لذلك عنوانًا مستقلًا وهذا لا يرتبط بقضية إحياء العلوم العربية.

من المحتمل أن السيد الراديكالي اعتقد أنه إذا ثبتت أهمية العلوم العربية فمن الممكن أن يتوجه إليها بعض الطلاب ولكننا نطمئن بأن الفرق الجديد فريق بعيد النظر وعملي وقد حدّد مساره ولا يمكن أن ينخدع بأن يتعلم العلم كونه علمًا.

والآن نتوجه إلى جمل السيد الراديكالي والتي ستراها بالنسبة للعلوم العربية.

ولكننا حائرون ماذا نتخذ من طريقة للاستدلال لمواجهتها؟ فإن علماء أوربا الماهرين بالعربية والذين يعتبرون أصحاب الحق في الفصل في هذه القضية مثل البروفيسور سيديو والبروفيسور ليبان والبروفيسور رينان والبروفيسور مونك (المؤلف الفرنسي المعروف) والبروفيسور براؤن هنري لويس والبروفيسور زخاؤ (عالم العربية الألماني المعروف) وغيرهم يعتبرهم السيد الراديكالي بأنهم لا يمدحون العربية إلا بهدف تضليل المسلمين وعدم إيقاظهم من سباتهم وإذا قدّمنا أمثلة للكمال العلمي

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واختراعات المسلمين فإن المشكلة أن السيد الراديكالي لا يعرف العربية، وأما حاله في علم التاريخ فيظهر من قوله "لم يرتب القرآن إلى زمن الخليفة الأول والثاني".

إن حجر الأساس لاستدلال السيد الراديكالي هو "أن العرب شعب وحشي ولذلك من المستحيل وجود ذخيرة علمية في لغتهم" وإذا استسلمنا بكون العرب وحوشًا فذلك لا يؤيد الدعوى التي قدّمها، الأشخاص الذين جاءوا بالذخائر العلمية في العربية كانوا عجمًا، مثل الفارابي وابن سينا والرازي والغزالي والطوسي وقطب الدين الشيرازي وغيرهم. ولا أعتقد أن السيد الراديكالي سيلقب هؤلاء العجم بالوحشيين.

ألقى السيد رينان الذي يشتهر بكونه متعصبًا ضد الإسلام محاضرة في الأكادمية الفرنسية وكان موضوعها "لا يمكن الجمع بين الإسلام والعلم".

اضطر في هذه المحاضرة إلى ذكر التحقيقات العلمية والفلسفية للمسلمين قال "نعم، الفلسفة موجودة في العربية ولكنها ليست عند العرب".

ولو أن رينان أنكر معرفة العرب بالفلسفة إلا أنه لم يستطع الإنكار أن العربية هي مخزن الفلسفة لكن السيد الراديكالي لا يؤيد وجود ذخيرة العلوم والفنون في العربية.

يقول السيد الراديكالي أنه لا يوجد لدى العرب أي ذخيرة تذكر في النثر، أما النظم فحاله أن نظم الجاهلية يقتصر على وصف العنق الطويل للناقة ووصف العشيقات ذوات الوجوه الجميلة في عصر الإسلام" وهذا القول يشبه قول الشيوخ القدامى عن أوربا وعلومها وفنونها بأن هؤلاء لا يعرفون شيئًا إلا أن يصنعوا بعض الآلات مثل الحدادين والنجارين أو يقوموا ببعض القطع والنبش مثل الجراحين" يا للأسف:

ولقد رضيت عن الذي تبديه لي
فلقد علمت بأنك لا تميزن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان من الممكن أن يكون هناك جانب ضعيف لتحقير العرب في الفلسفة والعلوم والفنون لكن إنكار فصاحة العرب وبلاغتهم وشعرهم وعلمهم باللغة مثل من ينكر النور للشمس. إن حقيقة فن الشعر تعني وصف مناظر الطبيعة والعواطف الإنسانية بحيث تؤثر على القلوب كحالة أصلية لا توجد إلا في أشعار العرب، وكل شخص من بادية العرب كان يملك القدرة أن يؤثر بقوة كلامه على الجماعات ويوجّهها حيث شاء. كان خلفاء بني أمية يحكمون في دمشق بكل شأن وأبهة لكنهم كانوا يرسلون أولادهم إلى البادية فقط لكي يتعلموا أسلوب الخطابة القوي واللغة السليمة بين سكان البادية، كل شعر من أشعار العرب كان يبعث الحماسة في الشعر، ولا يمكن لخطاب غليد استون أو بريك اليوم أن يؤثر كما استطاعت قصيدة واحدة لعمرو بن كلثوم أن تحافظ على أصل الشرف والنبل لآلاف السنين في بني تغلب ولذلك كانت هذه القصيدة يحفظها كل طفل في القبيلة وأحد أشعارها:

إذا بلـغ الفطـام لنـا صـبي تخـرّ لـه الجبـابر سـاجدينا

وافتخر العرب بأنما كانوا يقولونه في أشعارهم كان صدقًا ويفتخر العرب بأن مدح شخص يعتبر عارًا وخجلًا وعندما بدأ المدح في العصر اللاحق كان من اللازم أن لا يقال إلا الصدق والصواب، فعندما طلب ملك من شاعر أن يمدحه، قال له بكل وضوح "افعل حتى أقول". وبعدما كافأ هرم بن سنان زهير بن أبي سلمى على قصيدة كان من عادة زهير إذا حصر المجلس أن يقول: عموا صباحًا غير هرم، وخيركم استثنيت" يعني أن السلام على الملك يعتبر تملقًا ولا يليق بشاعر العرب.

من المؤسف أن السيد الراديكالي وأصحابه لا يعرفون العربية، وإلا كان باستطاعتنا أن نريهم نماذج رفيعة المستوى من الشعر العربي والتي لا مثيل لها، من من شعوب آسيا يستطيع أن يصف مناظر الطبيعة مثل المراعي والجبال والأنهار والغابات وحرارة الصيف وبرودة الشتاء والأمطار والغيوم أو المشاعر الإنسانية مثل الحزن والألم والغضب والشدة والفخر والحماس والشجاعة والجرأة والذوق والحب غيرها مثلما فعل العرب؟

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

نقدّم بعض الأمثلة من كتاب الحماسة كمثال في مجال الأخلاق فإذا كانت هذه الأشعار تعتبر نماذج جيدة فإننا مستعدون بأن نأتي ببحر من مثلها.

إذاما أتت من صاحب لك زلـــــــــــــــــــة ... فكـن أنـت محتـالًا لزلتـه عـــــــــــــــــــذرا

وللكـف عـن شـتم اللئـيم تكرّمًـــــــــــــــــا ... أضـرّ لـه مـن شـتمه حـين يشـــــــــــــــــتم

إن مـــن الحلـــم ذلًا أنـــت عارفـــــــــــــــــه ... والحلم عن قدرة فضل من الكـــــــــــــــــرم

لهـم جـل مـالي أن تتـابع لي غـــــــــــــــــنى ... وإن قـلّ مـالي لـم أكلّفهـم رفـــــــــــــــــدا

وإني لعبـد الضـيف مـا دام نـــــــــــــــــازلًا ... ومـا شـيمة لي غيرهـا تشـبه العبـــــــــــــــــدا

إنـا لنـرخص يـوم الـروع أنفســـــــــــــــــنا ... ولو نسام بها في الأمن أغلينا

إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قـــولُ الكمـــاة ألا أيـــن المحامونـــــــــــــــــا

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس؟ خالهم إياه يعنونا

إذ الكماة تنحّوا، أن يصيبهم حدّ الظباة وصلناها بأيدينا

إذا المرء لم يدنس من اللوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

تسيل على حدّ الظبات نفوسنا وليست على غير الظبات تسيل

إذا سيد منا خلا قام سيد قوول لما قال الكرام فعول

معودة أن تسلّ نصالنا فتغمد حتى يستباح قبيل

يقول السيد الراديكالي إن التواريخ العربية ترجمت إلى اللغات الأوربية بحواش مفيدة ومطالعاتها أكثر فائدة من الأصل العربي.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

نسأل السيد الراديكالي ماذا يقصد بـ"اللغات الأوربية"؟ إن كان يقصد الإنكليزية فادعاؤه باطل، المؤلفون الإنكليزين كلهم يعترفون بأن ثروة اللغة العربية باللغة الإنكليزية قليلة جدًا ولا يوجد فيها إلا بضعة كتب عادية ومتداولة، ندرج فيما يلي جدولًا يظهر تراجم التواريخ العربية إلى اللغات الأوربية ونصيب اللغة الإنكليزية من ذلك:

الرقم المسلسل	عنوان الكتاب	اللغة الهدف	سنة الطبع والمدينة
١.	تاريخ حمزة الأصفهاني	اللاتينية	ليبرغ، ١٨٤٠م
٢.	المسعودي	الفرنسية	باريس، ١٨٧٧م
٣.	أبو الفداء	اللاتينية	كانهكن، ١٨٩٤م
٤.	تاريخ الدول الإسلامية	اللاتينية	البسلا، ١٨٤٦م
٥.	رسالة الإفادة والاعتبار	الفرنسية	باريس، ١٨١٠م
٦.	سيرة السلطان صلاح الدين	اللاتينية	ليدن، ١٨٥٥م
٧.	تاريخ ابن خلكان	الإنجليزية	----------
٨.	كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ	الفرنسية	----------
٩.	تاريخ الكلبي	الألمانية	دستين فيلد، ١٨٥٧م

وقد ترجم مختصر الدول والتاريخ المكين وابن البطريق إلى اللغات الأوربية أيضًا ولكن مؤلفيهم كانوا مسيحيين لذلك لا نعدّها من مؤلفات المؤرخين العرب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد أصبح واضحًا من الجدول أنه لم يترجم إلى الإنكليزية إلا كتاب واحد والباقي ترجم إلى اللاتينية وغيرها. ما هي الطريقة التي يشير بها علينا السيد الراديكالي للاستفادة منها. هل يرضى بأن يفتح في علي كره قسم لتعليم اللاتينية والفرنسية إن كانت هذه هي النية فإننا نسحب مطالبتنا بتعليم العربية.

ولكن السؤال الحقيقي هو هل يمكن أن نقول على أساس الكتب المذكورة إن ثروة التاريخ العربي نقلت إلى اللغات الأوربية، ضعْ التواريخ العربية النادرة وغير المطبوعة جانبًا، حتى الكتب المشهورة والمتداولة لم تترجم، الجميع يعرف ابن خلدون وابن الأثير والطبري، إلى أي لغة ترجمت كتبهم، وهل يمكن أن نقول بدون ترجمة هذه الكتب إن ثروة العربية نقلت إلى اللغات الأوربية، يبلغ عدد التواريخ العربية المذكورة في كشف الظنون ألف وثلاثمائة، وهل تغني ترجمة بضعة كتب تاريخية عن اللغة العربية.

الثروة الأصلية للتاريخ العربي والمتمثلة في مؤلفات المحدثين، لم تنتبه إليها أوربا حتى الآن، فما بالك بالمؤلفات الأخرى، أي كتاب من مئات الألوف من كتب الرجال والتراجم ترجم إلى اللغات الأوربية؟

طبعت كتب التاريخ العربي بكثرة في أوربا لكن ليست مترجمة وفضّلت أوربا قراءتها بلغتها الأصلية ولم تعمل برأي السيد الراديكالي بالاستفادة منها مترجمة.

يقول السيد الراديكالي "إن اللغة العربية لا تحتوي على معلومات تعلي الهمة وتمنح الثقة والحرية".

الحرية والاستقلال ميزة المعلومات التاريخية عندما تقرأ عن الحرية والاستقلال في تاريخ دولة من الدول فذلك يحرّك المشاعر والتاريخ العربي مليء بهذه الأمثلة، الحرية سيطت من دم العرب ولا تستطيع أوربا حتى اليوم أن تقدّم أمثلة علو الهمة والشجاعة والاستقلال الموجودة في كل صفحة من صفحات التاريخ العربي.

وأعظم مثال للحرية من أن الصحابة رضوان الله عليهم وبالقدر الذي كانوا يحترمون به النبي ﷺ، كانوا يعبّرون عن آرائهم بكل حرية لدرجة أننا نتردد في ذكرها الآن.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عندما حضرت هند (أم معاوية) إلى النبي ﷺ للدخول في الإسلام بايعها على عدم قتل الأولاد فقالت: يا محمد! إن ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا يوم بدر فأنت وهم أعلم".

الجميع يعلم عن شدة عمر وحزمه ولكن شخصًا عاديًا كان يخاطبه أمام الجمع كما لا يمكن أن يخاطب حتى صديقه. وقد قال خالد بن الوليد مفتخرًا أن ملكنا (عمر بن الخطاب) لا يميّز بيننا، إذا أخطأ نصلحه، وإذا سرق قطعنا يده وإن لم يعدل عزلناه.

عندما أعلن عامل معاوية على المدينة عن خلافة يزيد وقال إنها سنة أبي بكر وعمر، قام شخص وقال كذبت لا بل سنة كسرى وقيصر.

وهناك مآت الأمثلة التي تحرّك مشاعر الحرية والاستقلال.

الحقيقة أن الجماعة التي تدرس فقط للحصول على الوظائف والتي اقتنعت بالوظيفة فقط بين أسباب المعاش الأخرى من تجارة وحرفة وصناعة، والتي لا تعرف من علوم وفنون أوربا إلا الأمور السطحية، ولا تملك الذوق العلمي، واستخدمت كلمة التعليم العالي بطريقة خاطئة ماذا تستفيد من النقاش في وجود العلوم والفنون في العربية أو عدمها، وإن كانت توجد فما فائدتها لهذه الجماعة، إن النقطة التي لم ينتبه إليها مسؤولو الكلية هي أن الطريقة الحديثة استطاعت أن تلفت إلى التعليم الإنكليزي فقط أولئك الذين يحتاجون إلى الوظائف، والأمراء والأغنياء الذين لا يحتاجون المعاش لا يعتنون بالإنكليزية، ولكن إن كان هناك التعليم العربية والديني بجانب التعليم الحديث لرأينا في ساحة الكية تذكارات الطبقة العليا الحاكمة.

وفي نهاية المطاف من الضروري أن أذكر أنه ليس من رأيي أن نبعد المسلمين عن التعليم الإنكليزي ونوجّههم إلى العربية، طبعًا هذه عداوة في حق الشعب ولكن أن يدخل في هذا النقاش تحقير للعلوم العربية بغير سبب، وقول مسؤولي الكلية بأن لا يتوقع أحد منهم بأن يصرفوا ولو ذرة واحدة على التعليم العربية" ظلم وقول يجانب العدل، وهذا يظهر خبايا المشاعر في قلوبهم.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والقول بأن العربية ليست لغة ديننا وإن كانت فتكفي تلاوة القرآن قول عامي وخادع ودبلوماسية تافهة، قولوا بوضوح إننا لا نحتاج حتى إلى القرآن، أو يعترفوا بأن فهم القرآن لا يمكن إلا بالتعليم العالي للغة العربية، على كل فإن الطريقة التي اتبعت لمعارضة العربية قد تكون صحيحة إلى حدّ ما ولكن يصدق على ذلك قولنا:

ولينصـــــــــــــــحون ولـــــــــــــــو بطـــــــــــــــور ســـــــــــــــيء

وتحقير العربية أثبت أن الشعب قد وصل إلى آخر درجة من الذل والهوان لأن أي شعب لا يذل إلى أن يعتقد بنفسه أنه ذليل، وقد حصل شعبنا على هذه الدرجة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فهرس المحتويات

العناوين	الصفحات
كلمة المترجمة	٣
حريق مكتبة الإسكندرية	٧
بحث مقدم وضروري	١٤
الحياة المختصرة لأبي الفرج	١٤
أول من أنكر هذه الحادثة هو غبن	١٦
الأوربيون يذكرون أن مصدر هذه الرواية هي التواريخ العربية	١٧
تحقيق الحادثة حسب قواعد الرواية	١٩
تدليس المؤرخين الأوربيين وخداعهم	٢٣
ما هي منزلة عبد اللطيف وحاجي خليفة؟	٢٨
الدعوى بخطأ الحادثة الافتراضية وإثبات دعوى النفي	٢٩
التواريخ البدائية للإسلام	٣٠
رواج المكتبات الإسلامية	٤٥
خالد	٤٨
بيت الحكمة	٤٩
مأمون الرشيد	٤٩
الحكم	٥٢
نوح	٥٣
عضد الدولة	٥٤
سيف الدولة	٥٤
أول مكتبة عامة	٦٠

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

دار العلم في مصر	٦٠
رواج المكتبات العامة	٦٠
الرد على السؤال الأول	٦١
تاريخ فارس العلمي	٦١
مترجمو الكتب الفارسية	٦٣
كتب علم التاريخ الفارسي	٦٣
كتب علم الأخلاق	٦٤
كتب فن الحرب	٦٤
أوامر وتوقيعات ملوك فارس	٦٤
الرويات والقصص الفارسية	٦٤
ألف ليلة رواية فارسية حقًا	٦٤
كتب مؤسسي الديانات الفارسية	٦٥
كتب السنسكريتية	٦٥
أسباب دمار المكتبات	٦٦
دمار مكتبة مصر	٦٦
تدمير التتار للمكتبات	٦٦
مرصد هولاكو خان	٦٧
ضياع الكتب القديمة	٦٧
رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي	٦٩
الحارث بن كلدة	٧٠
أول بيمارستان	٧١
دخول طريقة ويدك في العلاج	٧٢
راتب المفتّش العام للبيمارستان	٧٣

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ندرة	٧٥
البيمارستانات في عهد المقتدر بالله	٧٥
بيمارستان السجن	٧٦
البيمارستانات المؤقتة	٧٦
بداية طريقة الاختبار	٧٦
الجرّاح والطبيب يحملان الشهادة	٧٦
النورية	٧٩
أبو الحسن كشكرايا	٨٤
أبو الحسن كشكرايا	٨٤
أبو الفرج	٨٥
إبراهيم بن بكس	٨٥
سعيد بن هبة الله	٨٥
أمين الدولة بن تلميذ	٨٥
علم الميكانيكا والمسلمون	٨٧
رأي راديكالي عن إحياء العلوم العربية	٩٦